الأَب
هنري بولاد
اليسوعيّ

لا للقَدَر
كيف أكون حرًّا؟



دار المشرق - بيروت

الأَب
هنري بولاد
اليسوعيّ

لا للقَدَر
كيف أكون حرًّا؟

نقله إلى العربيّة
الأب سامي حلّاق اليسوعي

دار المشرق
بيروت

لا مانع من طبعه

بولس دحدح
النائب الرسوليّ للّاتين في لبنان
بيروت، ٢٠٠٣/١١/١٩

دار المشرق ش م م،
ص.ب. ١٦٦٧٧٨
الأشرفية، بيروت ٢١٥٠ ١١٠٠
لبنان
http://www.darelmachreq.com

ISBN 2-7214-1115-2

التوزيع: **المكتبة الشرقيّة**
الجسر الواطي - سن الفيل
ص.ب. ٥٥٢٠٦، بيروت - لبنان
تلفون: ٤٩٢١١٢ - ٥/ ٤/ ٤٨٥٧٩٣ (٠١)
فاكس: ٤٨٥٧٩٦ (٠١)
Email: libor@cyberia.net.lb

صدر هذا الكتاب بالفرنسيّة تحت عنوان:
L'Anti Destin, L'Homme face à sa liberté
Henri Boulad
Presses de la Renaissance, Paris, 1999.

فهرس المحتويات

الفصل الأوّل

هل الحرّيّة حقيقة أم خيال؟

الحرّيّة هي إحدى قضايا عصرنا الكبرى. إنّها قضيّة تطرح أكثر التساؤلات خطورةً، وتثير أشرس الجدالات، لأنّها في ملتقى جميع الإشكاليّات. فما من مجالٍ يتفادى تساؤلاتها، سواء كان في الفلسفة أو علم الاجتماع أو الاقتصاد أو السياسة أو علم النفس أو التربية أو الفنّ أو اللاهوت أو الروحانيّات...

كانت الحرّيّة محتواة ومكبوتة طوال آلاف السنين. وفجأةً، انطلقت كانطلاقة الرعد في ثلاث انتفاضات: النهضة والإصلاح والثورة. وانفجرت في عالم مستقرّ، وفي مجتمعٍ اعتاد الخضوع وطأطأة الرّأس.

فكما أنّ المراهق يعي ذاته وطاقاته فجأةً، كذلك اكتشف الإنسان فجأةً أنّه حرّ مستقلّ. ففي قرننا الحادي والعشرين، غمرت هذه الحرّيّة العقول، ونسفت الحواجز، ودخلت جميع الأوساط الاجتماعيّة، فلم تعد وقفًا على فئة

خاصّة من الناس أو سنٍّ معيّن أو جنس من الجنسين، أو طبقةٍ اجتماعيّة. ففي جميع أنحاء العالم، يستولي التعطّش إلى الحرّيّة على المسحوقين والعمّال والنساء والأطفال والشعوب المحرّرة من الاستعمار. وعلى جميع الأصعدة وفي جميع المجالات، ينادي الإنسان بحقّه في أن يكون سيّد مصيره واختياراته.

لكنّه، ما إن اكتشف حرّيّته، حتّى جعل يتساءل في شأنها. وعندما أطلق مَن اختبر سحر الحرّيّة، المكتسبة أخيرًا، صيحةَ انتصاره، أجابه الفيلسوف بسؤالٍ خطرٍ وفكريّ: «هل أنتَ واثقٌ بأنّكَ حر؟ ألستَ على خطأ؟ أليست حرّيّتكَ وهمًا وخيالًا؟»

في القرن التاسع عشر، وعى عالِم الاجتماع دوركايم Durkheim الانطباعات الكثيرة الّتي يخضع لها الإنسان منذ طفولته. فوصل إلى الاستنتاج بأنّ الحرّيّة أسطورة. فالكائن البشريّ ليس إلّا ألعوبة مؤثّرات الوسط الّذي يعيش فيه والتربية والمجتمع. ويمكننا شرح تصرّفاته واختياراته وتبريرها انطلاقًا من جميع هذه العوامل المترابطة. فالإنسان واقع في حبال شبكة صيد، خاضعٌ لمجموعةٍ من العوامل الاجتماعيّة التاريخيّة الّتي تُخضِعُ أفعاله كلّها وتحدّدها.

وبعد دوركايم، وصل فرويد Freud إلى استنتاجاتٍ مماثلة، لكنّه لم يركّز على الحتميّات الاجتماعيّة الّتي تؤثّرُ في الإنسان **من الخارج**، بل على الميول الفطريّة والدوافع الّتي تضغط عليه **من الداخل**. فالشهوانيّة Libido والعقل الباطن وثقل الماضي والطفولة هي بمثابة عتلة تحرّك نفسيّتنا وتحدّدها بدون علمنا.

وفي آخر الأمر، أتى ليفي شتروس -Lévi Strauss وشرح لنا كيف ندخل ضمن إطارٍ يؤقلمنا أقلمةً كاملة من خلال بنيةٍ ورثناها من المجتمع، وتنتقل بوساطة اللغة. **لستُ أنا الّذي يفكّر، بل اللغة تفكّرُ فيَّ**. لستُ أنا الّذي يتكلّم، بل اللغة تتكلّم من خلالي. هوذا التحدّي الّذي تواجهنا به الأفكار البنيويّة Structuralisme. فأنا إذًا آلة، رجلٌ آليّ، أداة بسيطة سلبيّة لبنيةٍ تحاول التعبير عن نفسها من خلالي.

يبدو أنّ علم الاجتماع والتحليل النفسي والبنيويّة جرّدتنا تمامًا من هذا الامتياز الّذي كان فخرنا وكرامتنا البشريّة.

فماذا إذًا! هل الحرّيّة حقيقة أم خيال؟

هناك أناسٌ يجزمون بهذه الحرّيّة وينادون بها ويؤلّهونها. وآخرون يتساءلون في شأنها، أو ينكرونها بمجملها. فبِمَ نجيب عن كلّ هذا؟

هناك ردّا فعلٍ ممكنان تجاه العنف والفظائع والاعتداءات الّتي شهدها القرن العشرون: الأوّل يدين بدون مواربة، انطلاقًا من الشعور بالعار: «مَن ارتكبوا هذه الأفعال وحوشٌ ومجرمون، ويجب معاقبتهم ليكونوا عبرةً لمَن يعتبر». والثاني شفيق رحيم، يسعى إلى الشرح والتبرير: «على كلّ حال، هؤلاء الناس ضحايا أوساطهم الاجتماعيّة أو تربيتهم أو غسيل الدماغ أو مذهبتهم الإيديولوجيّة أو نقص الحبّ والحنان في طفولتهم. ألن نفعل ما هو أبشع لو عشنا في ظروفهم؟» بمعنى آخر، وكما يقول عنوان فيلم لأندريه كايات André Cayatte: «كُلّنا قتلة». فهؤلاء الناس ليسوا مذنبين أكثر منكم ومنّي. لو نالوا ما نلناه من تربية ومبادئ، لما ارتكبوا هذه الجرائم البشعة.

إنّ الوحوش الّتي ندينها، والمجرمين الّذين نحاكمهم، **هم ضحايا أكثر منهم مذنبون**. فلا يكون هتلر أحد كبار المجرمين في التاريخ، ويتحوّل إلى معتوهٍ مجنون، ضحيّة حالته النفسيّة وماضيه وظروفه. وفي آخر الأمر، لا مسؤوليّة له في الفظائع الّتي ارتكبها.

فالحرّيّة، في آخر الأمر، ليست إلّا أمرًا ظاهريًا أو وهمًا.

إذا تساءلتُ عن نفسي، لابدّ أن ألاحظ أنّني لم أختر أمورًا كثيرة في حياتي. يفتتح لويس إيفلي Louis Evely كتابه عن الحرّيّة بهذه الفكرة:

«إنّ حرّيّتي تبرز وتُمارَس بين عددٍ لا يُحصى من التبعيّات. فأنا محدودٌ منذ البداية، مثلما تحدّد القاعدة الهرم. باستطاعة الهرم أن يرتفع ارتفاعًا أعلى أو باستقامةٍ أشد، لكنّه لا يستطيع أبدًا أن يتخطّى المربّع الّذي برز منه. وأنا أيضًا، أصارع في حقلٍ مغلق، لأنّني في شبكةٍ من الظروف والمؤثّرات التي تحدِّد حرّيّتي، حتّى وإن كانت تولّدها».

في البداية، لم أختر أن أكون موجودًا. ما من أحدٍ استشارني وسألني هل أريد أن أولَد. لقد ألقاني والداي في الوجود من دون رأيي. هذه هي أوّل إهانة لحرّيّتي: أنا موجودٌ من دون أن أختار أن أكون موجودًا. يا لها من سخرية! مع أنّ الأمر يتعلّق باختيارٍ أساسيٍّ جوهريّ: أكون أو لا أكون. لكنّي لم أختر. «لقد سفّروني» كما يقول پاسكال.

لم أختر انتمائي إلى أحد الجنسين ولا طول قامتي ولا سيماء وجهي ولا لون شعري ولا صحّتي ولا سماتي الوراثيّة ولا اسمي. فما هو خاصٌّ جدًّا بي، مقوّمات هويّتي، قد فُرِضَ عليَّ كلّه.

ولم أختر أيضًا أهلي، إخوتي، أخواتي، بلدي، جنسيّتي.

ولم أختر العصر الّذي أعيش فيه. لماذا ولِدتُ في القرن العشرين بدل القرن الخامس عشر أو الواحد والعشرين؟ لا أدري. كلُّ هذا فُرِضَ عليَّ، وعليَّ أن أقبله.

أضف إلى ذلك الحتميّات الاجتماعيّة الّتي ترمي بثقلها عليّ منذ ولادتي حتّى اليوم: المبادئ الّتي زُرِعَت فيَّ بالبيت والمدرسة والكنيسة والوسط الاجتماعيّ والمجتمع. كلّ ما يجعلني أفكّر بطريقةٍ معيّنة، وأعبّر بطريقةٍ معيّنة، وأومن بطريقةٍ معيّنة، وأنتمي إلى هذه الثقافة الخاصّة وهذه الفئة الاجتماعيّة.

يبدو، في آخر الأمر، أنّني لستُ إلّا محضَ مُنتَجٍ لوسطي الاجتماعيّ وثقافتي وتربيتي. فهل تتركُ جميع هذه العوامل المتكدّسة حيّزًا، ولو ضيّقًا، لما اتُّفِقَ على تسميته بهذه الكلمة الرنّانة: «الحرّيّة»؟

من جهةٍ أخرى، وبما أنّني كائنٌ اجتماعيّ للغاية، فقد حُكِمَ عليَّ أن أعيش مع الآخرين. ولكن، حين نقول: مجتمع، فهذا يعني التبعيّة. فإذا كنتُ وحيدًا في غرفتي، أستطيع أن أتمدّد، أن أكون عاريًا، أن أغنّي، أن أغلِقَ الشبابيك

وأفعل ما يحلو لي. ولكن، يكفي أن يشاركني أحدٌ سكني حتّى أفقد قسطًا كبيرًا من استقلاليّتي - اسألوا المتزوّجين عن هذا الأمر -. وحين نكون ثلاثة، حين نكون عشرة، حين نكون مئة، حين نكون ألفًا، حين نكون ستّة ملايين في مدينةٍ كالإسكندريّة، ما هو حيّز الحرّيّة الّذي يبقى لكلّ واحد؟

في الأَربعينيَّات من القرن الماضي، كان عدد السيّارات في شوارع الإسكندريّة قليلًا جدًّا. وقد ازداد هذا العدد مئة ضعف. ويُضاف إليه في الصيف عدد سيّارات المصطافين. ولم تعد الشوارع الخالية الخاوية من حركة المرور إلّا ذكريات. فنحن مجبَرون اليوم على التملّص عبر حركة مرورٍ فوضويّة، والقيادة على طرقٍ مزدحمة، والتحلّي بالصبر في اختناقات السير الرهيبة. كلّ سيّارة إضافيّة تقلّل شيئاً من حرّيّتي.

ويطرح علينا ازدياد عدد السكّان المطّرِد المشكلة نفسها تمامًا. فبما أنّ مصريًّا يولَدُ كلّ خمسٍ وعشرين ثانية، تنقص حرّيّتي بهذا القدر كلّ خمس وعشرين ثانية. كلّ مصريٍّ مولود يسرق شيئًا من خبزي ومساحتي الحيويّة والهواء الّذي أستنشقه والثروات التي يملكها البلد. ومع التزايد الطرديّ للولادات، تتضاءل حرّيّة كلّ

واحد، حتّى إنّ الغمّ يستولي علينا، إذ نخاف أن نراها ذات يومٍ قد اختفت.

لكنّ هذا ليس كلّ ما في الأمر. فبالإضافة إلى الحتميّات الّتي عدّدناها، هناك حتميّات أخرى لها علاقة بطبيعتي البشريّة. فهذه الطبيعة تفرض عليَّ عددًا من الضغوطات الّتي تمنعني من فعل ما يحلو لي. فأنا لا أستطيع أن أسير أكثر من مسافةٍ معيّنة، وأن أعمل أو أسهر أكثر من حدودٍ معيّنة، وأن آكل أكثر من مقدارٍ معيّن.

أنا مكيّفٌ وفقًا لصحّتي وجسدي وبنيتي ونظام غددي الّتي تسكب في جسدي أنواعًا متعدّدة من المواد. أيّة زيادةٍ فيها أو نقصان، ولو بمقدار جزءٍ من الميكروغرام، قد يجعلني كائنًا مختلفًا تمامًا.

أضف إلى ذلك السن الّذي ينهش قوايَ ببطءٍ، والشيخوخة الّتي لابدّ لها من أن تأتي، مع كلّ ما يواكبها من بؤسٍ وعجز. وأخيرًا وليس آخِرًا، هناك الموت الّذي لا حول لي في مواجهته ولا قوّة، والّذي عليَّ أن أنحني أمامه.

كيف نجرؤ ونتكلّم على الحرّيّة في تضافر هذه العوائق وفي تكدّس هذه العقبات؟

وإلى جانب جميع هذه العناصر الماديّة، هناك عناصرَ نفسيّة، إنّها طباعي الّتي لا تسمح لي

دومًا بأن أفعل ما أشاء. فلكلّ واحدٍ عقباته. الغضوب عبدٌ لأعصابه، والجبان عبدٌ لغمّه، و«أخضر النفسِ» عبدٌ لشهواته. والخجول عبدٌ لعُقَده، الخ.

ميولٌ لا تُعَدُّ ولا تُحصى كامنة في أعماقنا، وليست لدينا أيّة فكرة عنها في غالب الأحيان، وهي تستدعينا من كلّ جانب. نحن نكتشف أنفسنا أنّنا متوتّرون، ممزّقون، مشتّتون من الداخل بدوافع لاواعية وميول متناقضة. وما من أحدٍ أفضل من القدّيس بولس عرف كيف يعبّر عن هذا الصراع الداخليّ بين «الإنسانين» اللذَين يتصارعان في عمق كلّ واحدٍ منّا:

> «فالرغبة في الخير هي باستطاعتي، وأمّا فعله فلا. لأنّ الخير الّذي أريده لا أفعله، والشرّ الّذي لا أريده إيّاه أفعل. أشعر في أعضائي بشريعةٍ أخرى تحارب شريعة عقلي... ما أشقاني من إنسان» (رومة ٧/١٨-٢٤).

في نهاية هذا الإحصاء المختصر، نشعر بانطباعٍ مؤلم، وهو أنّه لم يبقَ من الحرّيّة الشيء الكثير، وأنّ بحرًا من المضايقات والحتميّات قد ابتلعها.

ولكن، إذا غابت الحرّيّة، غابت المسؤوليّة، وغابت الإنسانيّة، وغاب كلّ شيء، وبتنا دمىً

متحرّكة، عرائس، رجالًا آليّين، آلات، ألعابًا في يد القدر، ثمار مصادفةٍ هوجاء، ضحايا قوىً مسيطرة علينا، محمولين كريشةٍ في مهبّ الريح، نتقلّب كقذاةِ قشٍّ فوق الأمواج.

هل بإمكاننا أن نتكلّم بعدُ على الحرّيّة؟ ولو بقي منها شيء حقًّا، أين هو هذا «الشيء»؟ أين نجده؟ أين نطارده؟... نحن في آخر طريقٍ مسدود.

ما دمنا نصرّ على سلوك طريق التحليل، ونصبّ اهتمامنا على حتميّاتنا، لن نصل إلى شيء. فما نحن بحاجةٍ إليه هو أن نسمو على هذه الأمور، ونفهم أنّ **الحرّيّة ليست من نمط ما يحدّدها. إنّها من نمطٍ آخر، من مستوى آخر، وهي لا تُدرَك إلّا في تدفّقها.**

إنّ كلّ فعلٍ من أفعالي يمكن تفسيره منطقيًّا وفقًا لما يليه، وتبريره تبريرًا كاملًا انطلاقًا ممّا سبقه، حتّى إنّه يبدو مكيّفًا تمامًا بهما. ومع ذلك، حين أقوم بهذا الفعل، أشعر تمامًا بأنّه فعلي، صادر عنّي ونابع منّي، وأنّي فاعلٌ فيه حقًّا وحاضرٌ واقعيًّا. وبالنتيجة، أشعر بأنّ هذا الفعل يُلزِمني، وأنّي مسؤولٌ عنه مسؤوليّةً كاملة.

مثلًا: انظروا إلى صفحة الورق هذه الّتي أمامي. أستطيع أن أتركها حيث هي، أن أقلبها،

أن أطويها، أن أدعّكها، أن أحرقها، أن أرميها أرضًا. كيفما أختار، سيكون لديَّ أسبابي المقنعة تمامًا لأبرّر بعد حينٍ اختياري، وستكون جميع الدوافع الّتي سأعلنها معقولة، جميعها مقبولة. ومع ذلك، لم تكن هذه الدوافع حتميّة.

لحنّا أرنت Hanna Arendt جملة توضّح قولنا:

> «إنّ المعنى الحقيقيّ لكلّ حدث يفوق دومًا جميع «الأسباب» الماضية الّتي يمكننا ربطه بها».

حين أقرّر، أشعر بأنّني حرٌّ تمامًا، بغضّ النظر عن الأسباب الّتي تدفعني أو تحثّني. فأنا أشعر بأنّي حاضرٌ تمامًا في فعلي، وأعرف أنّي حرٌّ داخليًّا حين أفعله. **ولا أستطيع البرهان على هذا الشعور ولا بيان أنّني سيّد أفعالي ومنبعها. كلّ ما يمكنني فعله هو التأكيد على أنّها من المعطيات التلقائيّة أو القناعات الداخليّة.**

لهذا السبب، يجب القول إنّ الحرّيّة لا تُدرَك إلّا عند تدفّقها، عند ظهورها. ولا يمكننا أن نستقرأها مسبقًا ولا أن نثبتها لاحقًا. فهي تُدرَك في الـ «هنا والآن»، وتكون على مستوى الوجود والمُعاش. «فالحرّيّة لا تُبرهَن بل تُختبَر». إنّها ليست من المعطيات الموضوعيّة، بل اختبار ذاتانيّ وشخصيّ.

أنا عاجزٌ تمامًا عن أن أبرهن لكم على أنّكم أحرار إذا لم تعوا هذه الحرّيّة في أثناء قيامكم بالأفعال. فالحرّيّة لا تبرهِن عن نفسها إلّا حين تُعاش. إنّها خبرة يجب أن تُختبَر. إنّها مسألةٌ اختباريّة لا برهان.

الحرّيّة ليست نكرانًا أو هروبًا من الحتميّات. فنحن لن نهرب منها، لأنّنا «في وضعٍ معيّن»، سواء شئنا أو أبينا. بل هي إقرارٌ بها وقبولٌ لها وتحمّلٌ لأعبائها وضمٌّ لها إلى كلّ عملٍ نقوم به.

الحرّيّة هي عند تقاطع الحتميّات. إنّها عند نقطة اتّصال بعضها ببعض.

لنأخذ مثال عجلة الدرّاجة. فالقضبان الّتي تضغط بكلّ قواها على المحور المركزيّ، تبدو وكأنّها تريد سحقه وتثبيته وخنقه وشلّ حركته. ومع ذلك، فإنّ المحور الخاضع لجميع هذه الضغوطات، حين يتحمّل عبئها، لا يُبطِلُ مفعولها وحسب، بل يجانسها ويوحّدها.

إنّ ضغط القضبان على المحور المركزيّ ليس عائقًا، بل يسمح له بأن يُتِمَّ عمله التنسيقيّ والتكامليّ. فبفضل غدم حركته يُتِمُّ عمله. حين لا يتحرّك، يجعل الجميع يتحرّكون. حين لا يدور، يمكّن القضبان من الدوران. فتتقدّم العجلة، وتسير المركبة.

إنّ النقطة في الرياضيّات الّتي ليس لها وجود ولا مضمون ولا مساحة، والّتي نسمّيها في الهندسة: «المركز»، هي ما يجعل وجود الدائرة بكاملها ممكنًا.

والحرّيّة هي من هذا النمط. حين تبدو وكأنّها اختفت تمامًا، وحين يبدو أنّ لامتناهية الحتميّات الّتي تحدّدها قد امتصّتها ودمّرتها، تكون عندئذٍ على حقيقتها، شريطة أن تتحمّل هذه المضايقات، وتدمجها لتجعلها عوامل تحقّق بها ذاتها.

فالحرّيّة إذًا ليست عنصرًا من نمطٍ ما يضغط عليها ويحرّضها. إنّها مكان دمج جميع ظروفنا البيولوجيّة والاجتماعيّة والنفسيّة. إنّها المحور الّذي يتحمّلها وينسّق بينها، لتتمكّن العجلة من الدوران، والحياة من التقدّم.

فبمقدار ما يستطيع الإنسان أن يقبل بوعيٍ ما يحدّدُه، يتصرّف تصرّفًا حرًّا، تصرّفًا إنسانيًّا حقًّا.

الحرّيّة هي أن أقبل ذاتي كما أنا - أو كما لستُ عليه - لأكون فوق ذلك أو بعيدًا عنه.

مثال: هناك نساء لا يستطعن قبول أنوثتهنّ. فيمضين حياتهنّ يحلمن بحياة الرجولة، وهي لن تُعطى لهنّ أبدًا. إنّ هؤلاء لن يكنَّ أحرارًا أبدًا ما دُمْنَ يخضعن لأنوثتهنَّ وكأنّها نيرٌ أو إعاقة أو

ظروف معاكسة. إنّهنّ بحاجةٍ إلى أن يقلن لأنفسهنّ: «لم أختر أن أكون امرأة، لكنّي أقبل وأرضى بما أنا عليه. وبدل أن أستهلك طاقتي في رفض جِنْسانيّتي، أختارها بحرّيّة، وأرى أنّها رائعة، وأقبلها راضية». إنّ موقفًا كهذا هو وحده محرِّر.

عليّ أن أقبل ما لا أستطيع أن أغيّره.

يقول أحدهم: «إن عجزتَ عن الحصول على ما تريده، فارغب في ما تملكه». أو، كما يقول المثل الشعبيّ الفرنسيّ: «واجه حظّكَ السيِّئ بابتسام».

قد يعترض بعضكم ويقول: «الانحناء أمام الأمر المحتوم خضوع وقدريّة. وهذا ما يناقض الحرّيّة».

أنتم على خطأ: **الحرّيّة هي في القبول والرضى**، وسنعود إلى هذا الموضوع في فصلٍ قادم، حين نعالج مسألة حرّيّة الـ«نعم» والـ«لا». فما نقبله بطيبة خاطر، لا نكون خاضعين له. بل أكثر من ذلك. حين أقبل وأعتنق وأختار وأريد ما أنا عليه وما أعيشه، أبلغ حرّيّتي الحقيقيّة.

فما لا أستطيع أن أغيّره، فأخضع له من دون قبولٍ حقيقيّ، يجعلني عبدًا. فعليَّ إذًا أن أتعلّم كيف أدمجه وأحبّه بدل أن أتذمّر منه. إنّ هذه

القفزة بعيدًا عن الحتميّات هي هبة أستطيع أن أهبها لنفسي. فنحن نصل إلى الحرّيّة بإعلان: «أريد هذا». فالحرّيّة، في آخر الأمر، تُصنَع وتُبنى وتُبتدَع.

حين تلغي ظروفٌ مشروعًا، لا نضيعنَّ وقتنا في أسفٍ باطلٍ، بل لنقل: «إذا انغلق باب أفتح آخر، وإذا سُدَّ طريقٌ أجد آخر، فربّما يكون أفضل من الأوّل».

فبدل استحالةٍ فُرِضَت عليَّ، عشر إمكانيّاتٍ تُقترَحُ عليَّ. **والحرّ هو مَن يتحمّل حتميّاته ويتجاوزها**. بل أكثر من ذلك. الحرّيّة الحقيقيّة هي أن نستعمل كلّ ما يحدّدنا لنُعيد تشكيل أنفسنا، ونبني ذواتنا ثانيةً.

لعلّ غوتيه Goethe قصد هذا المعنى حين قال:

> «إنّ تركيبة هذا العالم مصنوعة من الضرورة والمصادفة. والعقل البشريّ هو بين الاثنتين، ويعرف كيف يديرهما».

ليس الفنّان الكبير مَن يأسف لنوعيّة المواد الّتي يملكها، ويرثي على الدوام لظروف العمل، بل مَن يتمكّن من خلق عملٍ رائعٍ انطلاقًا ممّا لديه. لعمّانوئيل مونييه Emmanuel Mounier مؤسِّس تيّار الشخصانيّة هذا الرأي:

> «من الحدود يوضع الإيقاع والشعر. فيجب

على الإنسان أن يعرف حدوده ليبني حياته بانسجام».

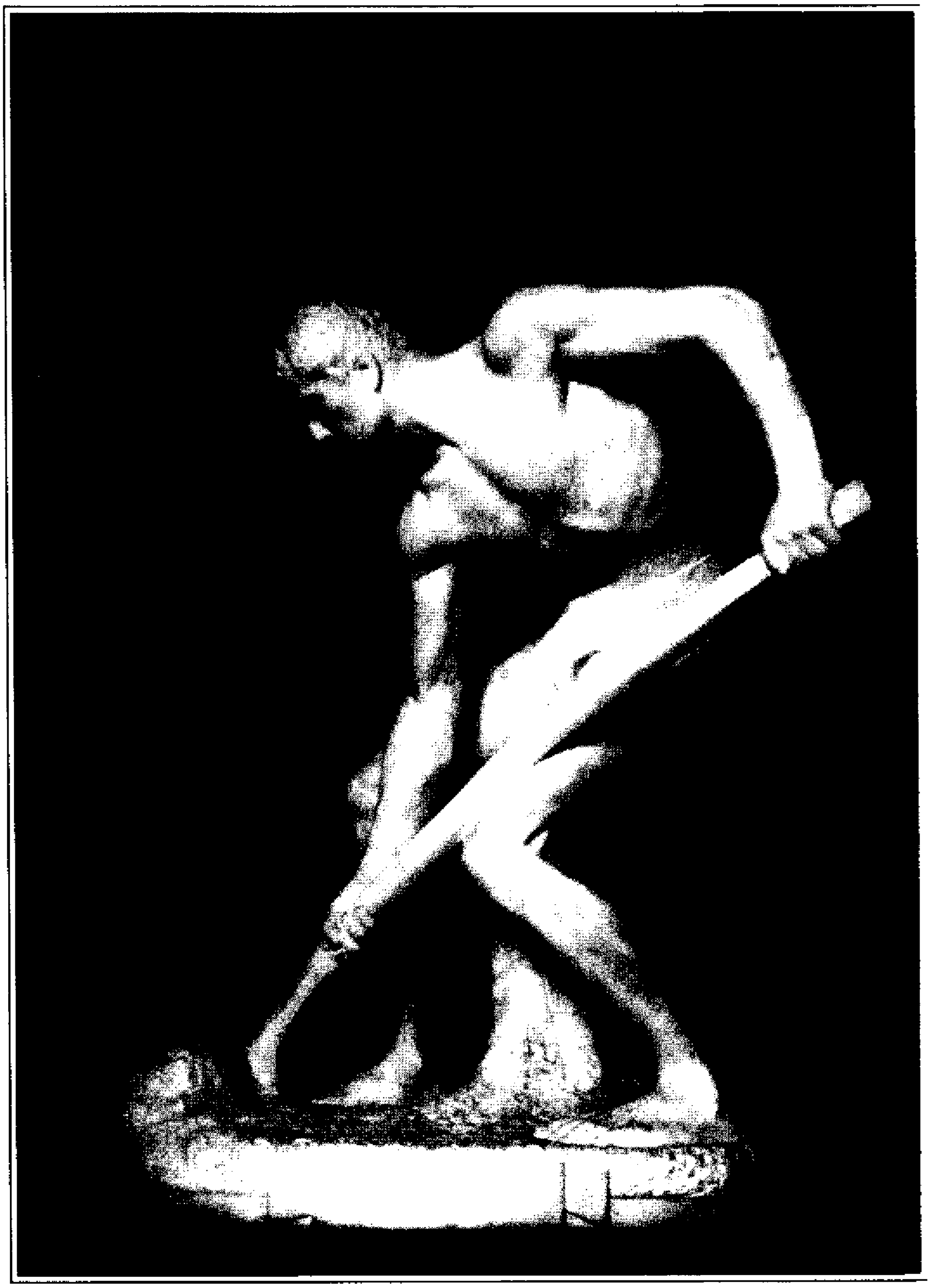
الحرّيّة تشبه رياضة الجيدو بعض الشيء. ففنّ هذه الرياضة هو أن أستعمل قوّة هجوم الخصم عليَّ لأغلبه بها. وكلّما كانت هذه القوّة شديدة، كان دفاعي أشدّ فعّاليّةً. فالعقبة تتحوّل إلى وسيلة والعيب إلى ميزة.

الحرّيّة الحقيقيّة ليست تلك الّتي تتشكّى وتتذمّر وتتّهم الآخرين والماضي والظروف، وتأسف على ما كان بإمكانه أن يكون أو لا يكون، على ما حصل أو لم يحصل. الحرّيّة الحقيقيّة هي الّتي تخترع وتخلق انطلاقًا ممّا لديها وما هو موجود، انطلاقًا من الواقع، من المعطيات. فالإنسان ليس حرًّا **على الرغم من حتميّاته، بل من خلالها ومعها وبها وبفضلها**.

للفيلسوف الفرنسي المعاصر جان بييه Jean Biès رأي موحٍ:

«لأنّه صعبٌ فهو رائع. لأنّه مستحيل فهو ممكن. ما من شيءٍ حقيقيّ إلّا الحكمة، ما من إيمانٍ إلّا ما لا يصدَّق...

استعمال الشيء في عكسه أمر ممكن دومًا... تجربة شيء مع العلم أنّ كلّ وضع يحوي ضمنيًّا عكسه، وأنّ الاختراع البشريّ لا حدود له.



«الحرّيّة الحقيقيَّة هي التي تخترع وتخلق انطلاقًا
ممّا لديها وما هو موجود».

كلّما شُدَّت الملزمة تقوى غريزة البقاء. كلّما ضاق عنق البوق يزداد دويّ الصوت الصادر.

في بعض الأحيان، تُصنع الآلات المتطوّرة جدًّا من وسائل بدائيّة قديمة. الصخرة الكبيرة الضخمة يفتّتها الخل. الجرذ يحرّر الأسد، وقصصٌ كثيرة تبرهن على ذلك».

مَن ينتظر أن يكون في صحّةٍ جيّدة ليكون سعيدًا ويقوم بعملٍ ما في حياته، لن يفعل شيئًا قطّ، وسيكون تعسًا على الدوام. وعلى العكس، طريح الفراش الّذي يجد معنىً لمرضه، ويتحمّل حالته تحمّلًا كاملًا، ويتمكّن حتّى من الاستفادة منها، هو حرٌّ حقًّا.

أن نكون أحرارًا حين نكون خارج السجن أمرٌ سهلٌ وحتّى بديهيّ. ومع ذلك، لسنا أحرارًا دومًا. كم من السجناء اكتشفوا الحرّيّة وهم معتقَلون؟ فحين واجهوا ذواتهم، عرفوا كيف يستخرجون قوّةً جديدة من عمق كيانهم. لقد اختبروا حرّيّةً أخرى أكثر أصالةً وأعمق، تسمو على القضبان، ولا ترتبط بالآخرين أو بالظروف.

تقول عمّانوئيل فريجيفيل Emmanuelle Frégeville:

«إذا كان إنسان اليوم سجينًا، فلأنّه يخطئ في فهم الحرّيّة. إنّه يبحث عنها في كلّ مكان ما عدا المكان المناسب...»

الحرّيّة مسألة داخليّة. نحن لا ننالها من الآخرين، ولا من الظروف، ولا من الأحداث. إنّها شرارةٌ تنطلق من عمق الضمير. ظهورٌ للشخص، تخطٍّ للمعطيات، انتصار على القدر، نشوة للكائن، خلق للذات بالذات، فعل إيمانٍ وشجاعة يتمكّن الإنسان من إنجازه بعيدًا عن جميع المضايقات المفروضة عليه.

أستعين برأي پول تيلّيش Paul Tillich في كتابه «الجرأة في أن أكون»، وأقول إنّ الحرّيّة الصحيحة هي دومًا «على الرغم من». على الرغم من كلّ ما يعيقها، على الرغم من كلّ الحتميّات، على الرغم من كلّ الظروف. فالحرّيّة تُبنى بالتصادم مع العقبات وبمواجهتها. **الحرّيّة ليست من المعطيات. إنّها من المكتسبات. إنّها انتصار**. إنّها تبرز وتولَد ممّا يعارضها. إنّها ليست عند الانطلاق، بل عند الوصول. ليست في أوّل الطريق، بل في نهايته. ولا يُبحَثُ عنها في الخلف، بل في الأمام.

الحرّيّة هي أوّلًا قبول للذات وللآخرين وللأحداث. ثمّ، بعد قبول كلّ هذا وتحمّله، نحاول أن نعيش معه.

لعلّكم تعرفون الصلاة المشهورة:

«يا رب، أعطني شجاعة تغيير الأشياء الّتي

أستطيع تغييرها، والهدوء لأقبل ما لا أستطيع تغييره، والحكمة لأميّز بينهما».

ففي بداية كلّ حرّيّة هناك واقعيّة أساسيّة، وهي أخذ ما هو موجود في عين الاعتبار. علينا أن ننطلق من هنا، وأن لا نحلم بحرّيّة مطلقة، فالله وحده حر. إنّه حرٌّ حقًّا. حرٌّ تمامًا. أمّا نحن، فنحن «في وضعٍ معيّن». عالقون بالضرورة في شبكةٍ من المضايقات والضغوطات والعلاقات الّتي تُفرَض علينا من الداخل ومن الخارج. هكذا هي الأمور. ومعرفة ذلك وأخذه في عين الاعتبار هو قاعدة كلّ حرّيّةٍ أصليّة.

مَن ينسب مسؤوليّة أفعاله إلى وراثته أو دوافعه أو أهله أو معلّميه أو الآخرين أو المجتمع، لا يكون حرًّا حقًّا. الحرّ هو مَن يستطيع أن يقول: «أجل، أنا الّذي فعل هذا، وأنا مسؤولٌ عنه، أنا المسؤول الوحيد، وأقبل أن أتحمّل كامل مسؤوليّة عملي وجميع نتائجه». وبإمكان العقبات الّتي يلاقيها الإنسان في طريقه، بل عليها، أن تصبح الوسائل الّتي ستُبنى بها حرّيّته.

اسمعوا هذا المثل الصينيّ الّذي أحبّه كثيرًا، وأذكره مرارًا في حديثي:

«الإنسان هو ابن العقبات».

فبالعقبات والصعوبات يتحقّق الإنسان ويولد.

وبالمعاكسات والعقبات، ينمو ويكتمل. فالحرّيّة ثمرة معركةٍ وانتصار. إذا ربّيتم أولادكم على الرخاء، وإذا سهّلتم حياتهم كثيرًا، تمنعونهم عن البلوغ والنموّ، وتحفظونهم في حالة الولدنة واللامسؤوليّة، وتجعلونهم عبيد النزوات والأهواء والدوافع.

وعلى العكس، إذا كنتم متطلّبين، وإذا رفعتم المستوى عاليًا، عندئذٍ تجبرون الطفل على تخطّي ذاته والتفوّق عليها. إنّه سيحرن ويعترض ويتمرّد في البداية. فإذا شجّعناه قليلًا، سيقيس نفسه بحسب العقبات، ويواجهها ويبذل الجهد لتذليلها. في خضمّ هذا الأمر، وبدافع رغبته في الحرّيّة، سيجتاز مرحلةً جديدة من الإنسانيّة.

الإنسان ابن العقبات. إنّه لا يبرهن عن نفسه، ولا يبني ذاته، ولا يحقّقها، إلّا بمقدار ما يتصادم مع المقاومة.

لا أدري مَن كان يقول هذه الكلمات:

«أحبّ ما يقاومني».

نحن ننمو بمقدار ما نواجه من عقباتٍ يجب تجاوزها. فالعقبة تولّد فينا ردّ فعلٍ وتنمّينا وتثير فينا انتفاضة. العقبة هي التحدّي الّذي ينعش طاقاتنا ويجبرنا على التجاوز. العقبة هي ما يمكّننا من اكتشاف إمكاناتٍ كامنة والقوى الّتي

يجب إطلاقها. العقبة هي ما ينعش الخيال ويحثّ الإرادة ويجبرنا على الإبداع.

الحرّيّة تعني أن أحاول تخطّي العقبات الّتي تعترضني واحدةً بعد الأخرى من خلال تخطيَّ لذاتي. إنّها إبداع لطريقي بعيدًا عن الطرق المسدودة والأبواب المغلقة. إنّها إعادة تشكيل الذات على الرغم، أو بفضل، كلّ ما يقاومنا. الحرّيّة هي أن نصبح أخيرًا صادقين مع ذواتنا بعيدًا عن العقبات وبفضلها.

إذا أردتَ أن تكون حرًّا، اجعل لنفسكَ مثاليّةً، مشروعًا، مبدأً عظيمًا، مخطّطًا كبيرًا، هدفًا، غايةً توجّه فكركَ وتمحور حياتكَ. اجعل كلّ كيانكَ في خدمة أمرٍ جليل، جميل، مستحيل. انظر إلى الأفق ودعه يجذبكَ. يقول ستان روجييه Stan Rougier:

«علّق حياتكَ بنجم».

فإذا حدّقتَ به، ستشعر بأنّكَ منقول، مرفوع، منجذب، مسحوب إلى الأمام بعيدًا عن محدوديّاتكَ. وسترى العقبات تتحوّل إلى وسائل مساعدة.

فبدل أن تندب وتتأوّه: «آهٍ لو كان لديّ... آهٍ لو أعرف... آهٍ لو أستطيع»، غامر بحياتكَ وقل: «مع ما لديَّ وما ليس عندي، مع ما أعرفه

وما لا أعرفه، مع ما باستطاعتي وما ليس باستطاعتي، مع ضعف صحّتي، ثقافتي، وسائلي البسيطة، أستطيع أن أنجح نجاحًا باهرًا في حياتي وأحقّق مثاليّتي وأعمل أشياء رائعة».

أصبح حرًّا بالعقبات الّتي أتخطّاها والمثاليّة الّتي أتّخذها والهدف الّذي أسعى إلى تحقيقه. فبالمغامرة تُكتسَب الحرّيّة وتصبح شيئًا فشيئًا واقعًا يُعاش. ولن أصير في آخر الأمر حرًّا إلّا حين أختار أن أكون كذلك تجاه كلّ شيءٍ وضدّه، تجاه الجميع وضدّهم.

فالحرّيّة تبدو إذًا وكأنّها ضدّ المصير، وكأنّها صرخة «لا» في وجه القدر، وكأنّها إرادة في أن يحقّق الإنسان ذاته بعيدًا عن ذاته.

يقول موريس زندل Maurice Zundel:

> «الإنسان مدعوّ إلى صنع نفسه - بدل الخضوع - ويتضمّن هذا التبدّل جميع المراحل الممكنة بين الصفر واللانهاية».

الحرّيّة الحقيقيّة تسمو على الحرّيّة، وتظهر لنا كتحدٍّ علينا تخطّيه.

«الحرّيّة ليست في بداية الطريق بل في آخره».

نحن لسنا أحرارًا حين يكون كلّ شيءٍ سهلًا، بل عندما يكون كلّ شيءٍ صعبًا، كلّ شيءٍ مستحيلًا، ولا يمكن تخطّيه. يا له من تناقض.

فالحرّيّة ليست ما نظنّه. إنّها سعيٌ وغزوٌ. ولا يكتشفها الإنسان ويبنيها إلّا في قلب العقبات.

فعلٌ خلّاقٌ محض. الحرّيّة هي أكبر غزوةٍ للإنسان.

الشريعة الإلهيّة وحرّيّة الإنسان

للوهلة الأولى، يبدو أنّ مفهومَي الشريعة الإلهيّة وحرّيّة الإنسان غير متوافقَين، وأنّ واحدهما ينبذ الآخر. فبين هاتين الفكرتين تعارض جذريّ على ما يبدو. ففي الواقع، تضع الشريعة الإلهيّة وصيًّا على الحرّيّة، بينما حرّيّتي هي، على العكس، انعتاق تامّ من كلّ شريعة حتّى وإن كانت إلهيّة.

يقول مكتب الدراسات العقائديّة والراعويّة للاستشاريّة الدائمة لأساقفة فرنسا في هذا الشأن:

> «الفرْضُ الأخلاقيّ والحرّيّة تعبيران يبدوان متناقضين. ويبدو أنّ تعارضهما أصبح من مقوّمات العقليّة المعاصرة. فكثيرون يشعرون، لا في العالم الدنيويّ فقط، بل في داخل الإيمان الدينيّ أيضًا، بأنّهم لا يستطيعون أن ينموا إلّا في جوٍّ من الحرّيّة الجذريّة» (الوثائق الكاثوليكيّة، ٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٩).

إنّ تعبير «الشريعة الإلهيّة» يوقظ فينا تلقائيًّا فكرة قانونٍ صلبٍ إجباريٍّ وقسريّ. وهو يذكّر بلوحَي الوصايا وموسى، كما صوّره الفنّان مايكل أنجلو برأسٍ مخدَّد ووجهٍ متألّم وعيونٍ ملتهبة لأنّها تأمّلت «وجه يهوه في هيئة نارٍ آكلة» (خروج ٢٤/١٧).

إنّه يذكّر بجبل سيناء المدخِّن وهو مكلّل بالغيوم ويهتزّ من أساساته. إنّه يذكِّر بلمعان البرق ودويّ الرعد على جبل حوريب، في جوٍّ يشبه نهاية العالم. إنّه يذكِّر بسلسلةٍ من التهديدات والتحذيرات والعقوبات.

ستقولون لي: «كلّ هذا تصوير بدائيٌّ من العهد القديم، وقد تجاوزناه منذ زمنٍ بعيد!»

لا أظنّ ذلك، بل على العكس، لديّ شعورٌ بأنّ الغالبيّة العظمى لازالت في هذه المرحلة، وأنّ المؤمنين لازالوا متأثّرين بفكرة الشريعة الّتي تُفرَضُ عليهم بطريقةٍ مستبدّةٍ عاتية تعسّفيّة. فكرة مشيئة الله الخارجة عنهم، الموازية لحياتهم، المستعبِدة والمسيطرة.

إنّها شريعة الأقوى: إلهٌ تسحقنا قدرتُه الكلّيّة، وما علينا إلّا أن ننحني أمامه ونطأطئ رؤوسنا ونخضع. لا شكّ أنّ هذا انعكاسٌ لمجتمعٍ مبنيٍّ على أسس القوّة، ويعيش بحسب منطق جدليّة

السيّد والعبد. حين يسود السيّد، على العبد أن ينسحق. من هذا المنظور، يبدو طبيعيًا جدًّا أن يفرض الله شريعته علينا، نحن العبيد البؤساء. وليترجيّاتنا الشرقيّة كما الغربيّة تصرّ على تسميتنا «عبيدًا»، على الرغم من جملة يسوع: «لا أدعوكم عبيدًا بعد اليوم... بل أحبّاء» (يوحنّا ١٥:١٥).

ومن جهةٍ أخرى، فإنّنا غالبًا ما ننظر إلى الشريعة على أنّها محنة أو امتحانٌ يخضِعُنا الله له، وعلى أنّ أهميّة الامتحان ليست في المضمون وإنّما في النتيجة. فالمضمون عديم الأهميّة. إنّه مسألة شكليّة. فالله اخترع إذًا، وبطريقةٍ عشوائيّة، عددًا من الاختبارات المسمّاة وصايا -وهي عشر كي يكون الرقم كاملًا- لنقدّم امتحانًا في الطاعة.

إذا نجحنا، ترفّعنا إلى الصفّ الأعلى، أي إلى السماء. وإذا رسبنا نسقط في جهنّم. ما من شيءٍ أبسط من هذا. أمّا أوراق الفحص - أي النتائج العمليّة لأفعالنا وحياتنا - فلا فائدة منها البتّة. بعد أن نجتاز الامتحان، يلقيها الله في الزبالة. **فأفعالنا لا تبني شيئًا، ولا معنى لها ولا قيمة في ذاتها. إنّها ليست إلّا مادّة امتحانٍ تمكّن الله من اختبار قدرتنا على الخضوع.**

كثيرون يتصوّرون الشريعة الإلهيّة على هذا النحو: اختبارٌ يفرضه الله ليفصل بين الناس ويجازي سلوكهم ويحدّد مصيرهم.

نحن لا ننكر أنّ عددًا من المقاطع في الكتاب المقدّس يقود إلى رؤية الأمور على هذا النحو. ففي البدء وضع الله الإنسان في حديقةٍ غنّاء، ومنعه من أكل ثمر شجرةٍ ما تحت طائلة العقوبة القصوى. فهذا الأمر، الّذي يريد اختبار الإنسان، يتطلّب منه خضوعًا غير مشروط، يبدو لنا تعسّفيًّا.

«وأمر الربّ الإله الإنسان قائلًا: من جميع أشجار الجنّة تأكل، وأمّا شجرة معرفة الخير والشرّ فلا تأكل منها. لأنّكَ إذا أكلتَ منها تموت موتًا» (تكوين ٢/١٦-١٨).

وإذ خالف الإنسان هذا الأمر، طُرِدَ من الجنّة، ووقف ملاكٌ مسلّحٌ بسيفٍ ناريّ ليمنعه من العودة إليها. وليس هذا كلُّ شيء. فقد راكم الله على الرجل والمرأة والحيّة العقوبات تلو العقوبات واللعنات تلو اللعنات (تكوين ٣).

«وقال للرجل: ملعونةٌ الأرض بسببكَ... بعرق جبينكَ تأكل خبزكَ حتّى تعود إلى الأرضِ فمنها أُخِذتَ.

وقال للمرأة: لأكثّرنّ مشقّات حملكِ تكثيرًا. فبالمشقّات تلدين البنين، وإلى رجُلِكِ

تنقاد أشواقكِ وهو يسودكِ.

وقال للحيّة: أنتِ ملعونةٌ من بين جميعِ البهائم وجميع وحوش الحقل. على بطنكِ تسلكين وترابًا تأكلين طوال أيّام حياتكِ.»

إنّ الفهم الحرفيّ لهذا النصّ يذكّر بصورة الإله المستبدّ المتقلّب المنتقم، الّذي يجعل الإنسان يدفع غاليًا ثمن خطإٍ يبدو تافهًا. ونصوصٌ أخرى في العهد القديم تساهم في المحافظةِ على هذه الصورة في نفوسنا. لذا، نجد لدى غالبيّة المسيحيّين خوفًا مرعبًا من الله ونظرةً تذنيبيّة من الشريعة.

ويعتمد هذا الموقف على مبدأ الحلال والحرام. فقد حدّد المشرّع الأعظم ما هو جائزٌ أو غير جائز، مرّةً واحدة وإلى الأبد، بطريقةٍ حاسمة وبدون شرح أو تبرير. وتُضاف إلى الوصايا العشر، المملاة على موسى، قائمةٌ كاملة من التعليمات والأوامر والفروض والشرائع والتوصيات والقواعد. غابةٌ حقيقيّة مجهولة يتيه فيها الإنسان ولا يستطيع أن ينبس ببنت شفة.

تصفّحوا كتب الأحبار والتثنية والعدد. ستصابون بالذعر من فيض التفاصيل التي تشمل كامل النشاط البشريّ والطقسيّ. إنّها تيئّس الإنسان من أن يكون نظاميًّا. وقد فعلت الكنيسة

بالمثل تقريبًا مع قائمة الخطايا والحالات الخاصّة التي تُرعب أحذق الربابنة.

الحمد لله أنّ الكمبيوتر أتى اليوم لنجدتنا ومساعدتنا على التوجّه. تقول فيرينا لنزن Verena Lenzen عن هذا الأمر، في محاضرةٍ ألقتها بجامعة بون:

«تحوي التوراة، بحسب كتاب الأعياد العبريّ، ٦١٣ قانونًا، أي ٣٦٥ منعًا و٢٤٨ وصيّة... وبحسب كتاب المدراش باميدبار ربّاح، تتناسب قوانين التوراة الـ٦١٣ مع عدد أحرف الوصايا العشر...

وبلغت طريقة قراءة الوصايا العشر، كقائمةٍ من الخطايا، ذروتها في طرحٍ جديدٍ بعالم المعلوماتيّة. إنّه برنامج: «اعتراف - مساعدة - بخطٍّ - مباشر - مع - يسوع». وهو لا يزال في مرحلته التجريبيّة... غاية هذه الطريقة هي فحص الضمير... بأسلوب «اعترافٍ نمطيّ». تظهر قوائم الخطايا تباعًا على الشاشة، وتنقر عند كلّ خطيئةٍ تقرّ بأنّكَ ارتكبتها، ويتمّ تسجيل عدد النقاط أمامكَ آليًّا. وفي آخر الفحص، يقوم الكمبيوتر بالحساب، ويعطيكَ النتيجة بشكل «نقاط الخطايا». فتنتقل عندئذٍ إلى قسم الندامة، فيشير لك إلى أيّ صلاةٍ عليكَ تلاوتها وفقًا

لمجموع «نقاط الخطايا».

في الماضي، وبسبب غياب الكمبيوتر، كانت تُستعمَل أنظمة أقلّ دقّة، كعقدِ عُقَدٍ في خيط، أو نقل حبّات حمّص من جيبٍ إلى آخر. مهما كان الأمر، المهم هو إجراء حساباتٍ دقيقة للخطايا، وفرزها بحسب الفئات الموضوعة: ميول سيئة، رذائل، خطايا رئيسيّة، خطايا عرَضيّة، خطايا فظيعة، خطايا مميتة. وطبيعة خطايا الجسد مميتة دومًا. بهذه الطريقة، نما في المسيحيّة طوال قرون تيّار تطهيريّ متزمّت وأصوليّ. فلا عجب أن يؤول بنا الحال إلى تحويل عددٍ كبيرٍ من المسيحيّين الصالحين إلى مرضى عصبيّين.

ولكي نقتنع بالدمار الّذي أحدثه هوس الخطيئة وجهنّم، علينا قراءة مؤلَّفين يستحقّان الإشارة إليهما: «عالم الخطيئة المرضيّ» للدكتور هِنار Hesnard و«العُصاب المسيحيّ» للدكتور پيير سولينياك Pierre Solignac. هذه شهادة، من بين شهاداتٍ كثيرة، لواحدٍ من مرضى الدكتور سولينياك، وهو شابٌّ إكليريكيّ يستعيد بعض ذكريات طفولته:

«منذ حداثة سنّي، كنتُ أرى كوابيس. أرى نفسي أحترق بنيران جهنّم، ويبدو أنّني كنتُ أصرخ مثل المحكوم عليهم. وطمأن الطبيب

والدتي وقال لها إنّها حمّى النموّ. والواقع هو أنّ الخطيئة المميتة أرهبت كلّ طفولتي، وكنتُ أعترف غالبًا مخافة ألّا تكون ندامتي كافية. وأذكر نصًّا من كتاب التعليم المسيحيّ عنوانه: «بخطاياي استوجبتُ الجحيم». ومن كثرة ما قرأته حفظتُه عن ظهر قلب.

آهٍ ما أرهب عذابات المحكوم عليهم بالجحيم. إنّهم محرومون من رؤية الله إلى الأبد. يتألّمون في نارٍ حرارتها أشدّ ألف مرّة من حرارة جميع نيران الأرض مجتمعةً. يسمعون على الدوام الكفر وصرخات الغضب واليأس. إنّهم بين الشياطين. وكم ستستمرّ هذه العذابات الرهيبة؟ ستستمرّ دومًا ودومًا إلى الأبد. آهٍ ما أرهب الجحيم. هذا ما تجلبه لنا خطيئة مميتة واحدة. في هذه اللحظة، ربّما كان في قلبي خطايا مميتة. فإذا متُّ الآن سأُلقى في الجحيم...».

كانت غاية تقديس الذعر والانسحاق جعل المسيحيّين صالحين والمواطنين أتقياء. وقد أرادت الأنظمة الاستبداديّة بلوغ الغاية نفسها باستعمال أساليب مشابهة. فهل أدّى كلّ هذا إلى تحسين الإنسان؟ هل غيّره؟ إنّ هذا يجعلني أفكّر في مصر، حيث نُكثر من القوانين والمراسيم، وحيث نعيّن مفتّشين ثمّ مراقبين لمراقبة

المفتّشين، ثمّ مفتّشين عامّين لمراقبة المراقبين. أيّة فائدةٍ لهذا حين تكون القاعدة فاسدة ويسود الفساد؟ على كلّ حال، لا تنحصر هذه المشكلة في مصر. فهي موجودة تحت كلّ خطوط الطول والعرض.

ويبدو أنّ الله رأى بمرارةٍ هذا الأمر، وتبيّن له بوضوح، بعد قرونٍ من خيبة أمل الرجاء وانكشاف الوهم، أنّ الكائن البشريّ لا يُصبح أفضل بالإكثار من الشرائع والمحظورات، كما يقول لنا ذلك القدّيس بولس في رسالته إلى أهل رومة. ومع يسوع، قرّر الله أن يقلب الصفحة نهائيًّا ويقيم عهدًا جديدًا. فهل نعيش هذا العهد حقًّا أم أنّنا لازلنا في العهد القديم؟ لكي نعرف ذلك، أقترح عليكم اختبارًا: لنفترض أنّ الكنيسة أعلنت ذات يوم هذا الإعلان الرنّان:

«ابتداءً من الغد، لن تكون هناك شرائع ولا محظورات ولا دينونة ولا جهنّم. كلّ شيءٍ مسموح! وصايا الله والكنيسة ملغاة، والخطيئة غير موجودة. وبإمكانكم أن تفعلوا ما يحلو لكم... أنتم أحرار!»

أليس هذا في الواقع ما. أراد سارتر Sartre أن يقوله من خلال أحد أبطال شخصيّاته المسرحيّة؟

«لم يعد في السماء شيء، لا خير ولا شر

ولا شخص يأمرني لأنّي إنسان، جوپيتير، وعلى كلّ إنسان أن يشقّ طريقه» (الذباب).

أرى أنّكم تحفّون أكفّكم بعضها ببعضٍ وترقصون: «هذا مدهش، رائع! ولكن، هل هذا صحيح؟ أليست دعابة، مزحة سمجة؟»

لا! من هنا يبدأ كلّ شيء. من هنا تتنحّى الخُلُقيّة من أجل الأخلاق. لهنري برغسون Henri Bergson نصٌّ حول هذه النقطة يثير التفكير.

«هناك تعارض بين الأخلاق والخُلُقيّة. فالخُلُقيّة هي حين يعود الضمير إلى شريعة موجودة أبدًا، إلى مثاليّةٍ جامدة، إلى خلاصةٍ من المبادئ، كي يقرِّر. فلا داعي إذًا للتفتيش - التفتيش كلمة هامّة في الكتاب المقدّس: «فتّشوا تجدوا» (متّى ٧:٧) - والاختراع وتحليل الأوضاع الّتي فيها الأشخاص. يكفي إيجاد نقاط تطبيق الشريعة.

وعلى العكس، في الحياة الأخلاقيّة الصادقة، يفهم الضمير الشريعة على أنّها قواعد خلّاقة تحثّ على اتّخاذ قراراتٍ شخصيّة انطلاقًا من أوضاعٍ تمّ تحليلها بأصوب ما يمكن. وهذه القرارات تؤلّف الالتزام. حينئذٍ، يتمّ إدراك القيم من خلال القرار نفسه الّذي يغيّر مسار التاريخ، على

المستوى الصغير أو الكبير، في الحياة الخاصّة كما العامّة. بمعنىً آخر، الخُلُقيّة تعني الخضوع للشريعة لأنّها شريعة. وهي طاعة شكليّة تتراجع بسهولة احترامًا للمصالح، ولِما «يتم»، على حساب الشجاعة والمسؤوليّة والطباع. أمّا الأخلاق، فتعني الوفاء الخلّاق بوساطة الشريعة، وتصعيدًا للشريعة في القرارات الّتي تعبّر عن الأنا العميق» (منبعا الأخلاق والدين).

إنّ هذا الموقف وحده يجعلنا بالغين حقًّا ومسؤولين. فلا تُحَثُّ الهمم فينا حينئذٍ من الخارج وإنّما من الداخل. والحقّ يُقال، إنّ مضمون إعلان الكنيسة الّذي تصوّرتُهُ موجودٌ في الإنجيل وفي رسائل القدّيس بولس:

«كلّ شيءٍ حلال، ولكن ليس كلّ شيءٍ بنافع. كلّ شيءٍ حلال، ولكن ليس كلّ شيءٍ يبني...» (١ قورنثوس ١٠/ ٢٣-٢٤).

وفي مكانٍ آخر، يؤكّد بولس نفسه هذا الأمر بالعبارات نفسها تقريبًا:

«كلّ شيءٍ يحلّ لي، ولكن ليس كلّ شيءٍ ينفع. كلّ شيءٍ يحلّ لي، ولكنّي لن أدع شيئًا يتسلّط عليّ» (١ قورنثوس ٦/ ١٢).

هذا يعني أنّه، من الآن فصاعدًا، لن تكون هناك شريعة تُفرَضُ على الإنسان من الخارج.

وقد أعلن الله ذلك من قبل في العهد القديم:

«إنّ هذه الوصيّة الّتي أنا آمركَ بها اليوم ليست فوق طاقتكَ ولا بعيدةً عنكَ. لا هي في السماء فتقول: مَن يصعد لنا إلى السماء فيتناولها لنا ويُسمِعُنا إيّاها فنعمل بها؟ ولا هي عبر البحر فتقول: مَن يعبر لنا البحر فيتناولها لنا ويُسمِعُنا إيّاها فنعمل بها؟ بل الكلمة قريبةٌ منكَ جدًّا. في فمكَ وفي قلبكَ لتعمل بها» (تثنية ٣٠/ ١١-١٤).

وسيلحّ أنبياء العهد القديم على الطبيعة الداخليّة للشريعة كردّ فعلٍ على ديانةٍ شكليّة وأخلاقٍ حرفيّة.

«ولكنّ هذا العهد الّذي أقطعه مع بيت إسرائيل في تلك الأيّام... هو أن أجعل شريعتي في بواطنهم وأكتبها على قلوبهم... ولا يعلِّمُ كلُّ واحدٍ قريبه وكلّ واحدٍ أخاه قائلًا: «اعرف الربّ» لأنّ جميعهم سيعرفوني من صغيرهم إلى كبيرهم» (إرميا ٣١/ ٣٣-٣٤).

فشريعة الله ليست نيزكًا يسقط من السماء، ولا أمرًا يجب البحث عنه في آخر العالم. بل هي شيء قريبٌ جدًّا، حميميٌّ جدًّا، داخليٌّ جدًّا، حاضرٌ «في عمق كياننا»...، «في أفواهنا وفي قلوبنا». ويعيد القدّيس بولس هذه الجملة حرفيًّا

في رسالته إلى أهل رومة (١٠/ ٦-٨).

يمكننا أن نعتبر لوحَيّ الوصايا اللذَين حطّمهما موسى علامةً على هذا التغيير: **على ما كان منقوشًا في الصخر أن ينطبع منذ الآن في القلوب**. فلا حاجة إلى الشريعة ولا إلى الوصايا العشر، حين يمسّ الروح القدس الإنسان في عمق أعماقه.

وبعد النصّ الّذي ذكرناه أعلاه، يورد كاتب سفر التثنية مباشرةً شرحًا منيرًا، هو بمثابة تعليقٍ وإتمامٍ لأقواله. فالمسألة تتعلّق بطريقَين:

«انظر! إنّي قد جعلتُ اليوم أمامكَ الحياة والخير والموتَ والشر. إذا سمعتَ إلى وصايا الربّ إلهكَ... تحيا وتكثر ويباركك الربّ إلهكَ... وإن تحوّل قلبكَ ولم تسمع وابتعدتَ... أعلن لكم اليوم أنّكم تهلكون هلاكاً، ولا تطيلون أيّامكم... قد جعلتُ أمامكم الحياة والموت، البركة واللعنة، فاختر الحياة لكي تحيا» (تثنية ٣٠/ ١٥-١٩).

الرسالة واضحة. شريعة الربّ هي طريق حياة، والبقاء هو إيجاد الحياة وإتمامها وتحقيقها. والتحوّل عنها يعني الموت والدمار والضياع.

من أين أخذ الربّ شريعته حين حدّدها ووصاياه حين أملاها؟ من أين جلبها؟ كثيرون يعتقدون أنّه اخترعها «ليضايقنا» فقط. فهي إذًا

قوانينَ تعسّفيّة هدفها امتحاننا.

الأمر يختلف حين نفهم أنّ شريعة الربّ ليست سوى تعبير كلاميّ عن شريعة كياننا المكتوبة في أعماق قلوبنا.

فالكون الّذي خلقه الله يُدارُ بشرائع، والإنسان قادرٌ عادةً على اكتشافها وحده لو كان واعيًا بما فيه الكفاية، وشفّافًا وصادقًا مع نفسه. حينئذٍ، لا حاجة إلى الوعي أو إلى الوصايا العشر لمعرفة ما يريد الله أن يقوله له. فحين يعود إلى ذاته، يكتشف هذه الشريعة مسجّلةً في أعماقه.

من المهم أن نلاحظ في هذا السياق كيف اعتمد القدّيس توما الأكوينيّ على العقيدة الأخلاقيّة لفيلسوفٍ وثنيّ، وهو أرسطو، وجعلها أساس خلاصته اللاهوتيّة. ففي الواقع، يمارس كثير من غير المؤمنين هذه الشريعة من دون أن يعرفوا النصَّ المكتوب، ومن دون أن يكونوا قد سمعوا عنه. هذا ما يؤكّده القدّيس بولس لنا بوضوحٍ في رسالته إلى أهل رومة:

> «فالوثنيّون الّذين بلا شريعة، إذا عملوا بحسب الطبيعة ما تأمر به الشريعة، كانوا شريعةً لأنفسهم، هم الّذين لا شريعة لهم، فيدلّون على أنّ ما تأمر به الشريعة من أعمال مكتوب في قلوبهم، وتشهد له ضمائرهم وأفكارهم. فهي تارةً تشكوهم وتارةً تدافع

عنهم» (رومة ٢/ ١٤-١٥).

كلّ إنسان يحمل هذه الشريعة في داخله، لأنّ الكلمة ساكن فيه، «النور الّذي ينير كلّ إنسانٍ آتٍ إلى العالم» (يوحنّا ١: ٩). وهذا الكلمة الّذي في كلّ إنسان هو نفسه الّذي كلّم موسى والأنبياء، وهو نفسه الّذي ظهر في يسوع المسيح. إنّه الكلمة نفسه، اللوغوس نفسه.

فليست شريعة موسى إذًا سوى تعبير عن الشريعة الداخليّة الّتي يحملها كلّ إنسانٍ في أعماق ذاته. وإذا لعبنا بالكلمات، يمكننا القول إنّ نظام الله، أي وصاياه، يناسب نظام العالم، أي تنظيمه. فلكلّ وصيّةٍ للخالق صفة في الخليقة، والعكس صحيح. وكلاهما مرتبطان برباطٍ لا يُفَك. فحين عبّر الله عن مشيئته، لم يفعل غير إظهار شريعة الكائن الخفيّة لكي يتمكّن الإنسان من العيش باتّفاقٍ مع ذاته وانسجامٍ مع العالم.

فالشريعة الإلهيّة لا تصبو، بأيّ شكلٍ من الأشكال، إلى إجبار الإنسان على الطاعة العمياء والمستعبِدة. إنّها تصبو، وبكلّ بساطة، إلى أن تكون له مرشدًا، وتجعله يعي ضميره العميق، وتساعده على تحقيق ذاته. علينا إذًا أن نكفّ عن الشعور بأنّها نيرٌ مرهِق، عنفٌ تجاهنا، قوّةٌ

ساحقة وقاهرة، عائقٌ خارجيّ ينغّص عيشنا ويستعبدنا. فقبولها يعني، في آخر الأمر، قبول الذات.

إنّ صرخة إحدى شخصيّات الكاتب دوستويفسكي Dostoïevski: «إذا لم يكن الله موجودًا، فكلّ شيءٍ مسموح!» تعبّر عن نظرةٍ خاطئة إلى الله. إنّها صورة الإله الشرطيّ، ودوره هو أنْ يكون حارسًا للأخلاق وضامنًا للخُلُقيّة. لا! فالأخلاق تبدأ بالضبط حين يختفي الله. وهي أخلاقٌ غير مؤسّسةٍ على مشرّعٍ أعظم يجبِرُنا من الخارج، بل على طبيعة الأشياء نفسها.

فالتعبير السائد **لا ذمّة ولا دين** يخطئ، إذ يربط مفهومَين عليهما أن يكونا منفصلَين. لقد كانا متلازمَين، لأنّ الإيمان كان أساس الشريعة الأخلاقيّة. مَن يفقد إيمانه، يشعر فجأةً بأنّه تحرّر من جميع الفرائض. أمّا اليوم، فمن الضروريّ فصل التعبيرَين، **كي نعيد للأخلاق استقلاليّتها ونؤسّسها على تطلّباتٍ داخليّة لا على نوعٍ من الوصايا العشر.**

يقول ألبير كامو Albert Camus على لسان إحدى شخصيّات روايته «الطاعون»: «كيف نكون قدّيسين بدون الله؟ إنّها المشكلة الواقعيّة الوحيدة الّتي أعرفها اليوم». أظنّ أنّ هذه الفكرة تمسّ

نقطةً أساسيّة يجدر بنا التعمّق فيها. ففي المرحلة الأولى، من الضروريّ أن نفصل الله عن الأخلاق، وحتّى عن القداسة، لننقّي هذين المفهومَين ونعيد إليهما معناهما الحقيقيّ.

فبمقدار ما يكتشف الإنسان أنّ الأخلاق دعوة إلى أن يكون، أنّها طريقُ إنسانيّة، أنّها ضرورة للنموّ، فإنّه يصبح حرًّا، يصبح بشرًا. **حينذاك، سينهل من ذاته شرائع سلوكه وتصرّفاته.**

فالعيش في «شريعة الروح» متطلّبٌ أكثر بكثير من الشريعة الأخرى، وهو ليس بحاجةٍ إلى وصايا. ففئات المسموح والمحظور غير موجودة بالنسبة إلى الإنسان البالغ، الإنسان الروحانيّ الناضج، لأنّه تجاوزها.

لا شكّ في أنّ الشريعة الخارجيّة ضروريّة في البداية. فهي بالنسبة إلى الناس دليلٌ وحماية حتّى يتكوّن ضميرهم، ويتمكّنوا من التمييز بأنفسهم. فللشريعة إذًا فوائدها في البداية لكونها «مربّيًا» كما يقول القدّيس بولس.

> «فصارت الشريعة لنا مربّيًا يقودنا إلى المسيح» (غلاطية ٣/ ٢٤).

الشريعة ضروريّةٌ إذًا حتّى مرحلة معيّنة من نموّنا، وينتهي زمنها عند مَن استولى الروح القدس عليه. إنّها تمثّل، بالنسبة إليه، مرحلةً

منتهية. ويمكننا تشبيهها، وإن بطريقةٍ غير ملائمة، بقالب تمثال. فالتمثال لا يظلّ في قالبه إلى الأبد. حين تتصلّب مادّته، نُخرجه من غلافه، لأنّه قادر منذ الآن على الوقوف وحده وبنفسه.

ويُقال الأمر نفسه بالنسبة إلى مَن يتعلّم لغةً أجنبيّةً أو العزف على آلة. فطوال وقتٍ طويل، عليه أن يلتزم بطريقةٍ وقواعد وتمارين، حتّى يتمكّن من الانطلاق والإبداع بنفسه. **حين يتقن الفنّان التقنيّة، لا تُفرَض عليه بعدُ قواعد أو عوائق خارجيّة، ويستطيع أن يبدع بحرّيّة.**

بهذا المعنى، يقول لنا القدّيس بولس:

«أمّا أنتم، فلستم تحيون في الجسد، بل في الروح، لأنّ روح الله حالٌّ فيكم» (رومة ٨/ ٩).

«اسلكوا سبيل الروح... إذا كان الروح يقودكم، فلستم في حكم الشريعة» (غلاطية ٥/ ١٦-١٨).

«إنّ المسيح قد حرّرنا تحريرًا. فاثبتوا إذًا، ولا تدَعوا أحدًا يعود بكم إلى نير العبوديّة» (غلاطية ٥/ ١).

«إنّكم قد دُعيتم إلى الحرّيّة» (غلاطية ٥/ ١٣).

فمَن استوعب تعاليم يسوع، وقد أُشبعَ من

روحه، يستطيع إهمال الوصايا، وعزف أنشودة حياته بحرّيّةٍ كبيرة.

حين يتكوّن الضمير، يصبح الإنسان قادرًا على الحكم بنفسه بين الخير والشر وفقًا لما هو خير وما هو شر. وانطلاقًا من هذا المقياس، يسمح لنفسه بشيءٍ ويمنع عنها شيئًا آخر. فالممنوع لا يأتيه من الخارج، بل ينبعث من الداخل، لا يفرضه الله عليه بل يولَد من تطلّبٍ داخليّ يقبله بكلّ حرّيّة.

حينئذٍ، تكون هذه الحرّيّة قد تجاوزت الإطار الضيّق للشريعة، وأقامت، كما يقول عنوان إحدى مؤلّفات نيتشِه الشهيرة، «بعيدًا عن الخير والشر». فمَن يعيش بعيدًا عن الخير والشرّ هو وحده حرٌّ حقًّا.

فالممنوع ليس ممنوعًا إلّا لأنّه مؤذٍ ويخالف الحياة ويدمّر الإنسان، أو يقلّل من شأنه. والمسموح، على العكس، هو ما يجعلنا ننمو، ويبنينا ويجعلنا ننشرح، ويحثّنا على الانفتاح والمحبّة. لا شيء أبسط من هذا.

في ضوء هذا المقياس، يتخطّى الإنسان البالغ حقًّا بقفزةٍ واحدة كلّ الشرائع المكتوبة ليصبو إلى ما هو أبعد منها. فالوصايا العشر ليست إلّا الحدّ الأدنى. إنّها تعبّر، وبطريقةٍ فظّة، عن جزءٍ صغيرٍ

جدًّا من شريعة كياننا. لهذا يدعونا المسيح، في عظته على الجبل، إلى البحث عمّا هو أعمق، والسعي إلى ما هو أسمى: «قيل لكم... أمّا أنا فأقول لكم...». ثمّ هذه الجملة الّتي تختصر الموعظة على الجبل بطريقةٍ جوهريّة:

«كونوا كاملين كما أنّ أباكم السماويّ كامل» (متّى ٥/٤٨).

منذ ذلك الحين، أصبح الروح القدس الدليل والمرجع النهائيّ. مرجعٌ داخليٌّ صرف، يدفع الإنسان دومًا إلى السعي نحو تطلّبٍ أشد. **وتحلّ الدعوة إلى أن أكون محلّ القاعدة الجامدة.** بهذا المعنى، كان الأب إيف دِه مونشوي Yves de Montcheuil، اليسوعيّ الّذي أعدمته المخابرات الألمانيّة، يؤكّد أنّ كلّ ضمير يجب أن «يظلّ منفتحًا على إمكانيّة نورٍ إضافيّ». وبهذا المعنى أيضًا، تكلّم برغسون، في النصّ المذكور سابقًا، على البحث والإبداع والاختراع. فأخلاق الكتاب المقدّس ليست «أخلاقًا منغلقة»، بل «أخلاق منفتحة».

«بين الأخلاق الأولى والثانية مسافة مثل الّتي تفصل الراحة عن الحركة. الأولى ساكنة، إذا تغيّرت، تنسى بسرعة أنّها تغيّرت أو لا تعترف بالتغيير، وتدّعي أنّ الشكل الّذي تقدّمه في أيّة لحظة هو الشكل النهائيّ. أمّا

الثانية فهي اندفاع وحركة متطلّبة. إنّها حركيّة في مبدئها...

الأخلاق الأولى سهلة الصياغة نوعًا ما. أمّا الثانية فلا. ففي الواقع، يحملنا ذكاؤنا ولغتنا إلى أمور لا تستطيع بسهولةٍ أن تمثّل النقل أو التطوّر. أمّا الأخلاق في الإنجيل، فهي أساسًا أخلاق النفس...

قيل لكم... أمّا أنا فأقول لكم... الانغلاق من جهة، والانفتاح من الجهة الأخرى. لم تُلغَ الأخلاق السائدة، بل تظهر على أنّها فترة في مسيرة التطوّر. لم يتمّ التخلّي عن الطريقة القديمة، بل تمّ ضمّها إلى طريقةٍ أعمّ. كما يحدث حين تمتصّ الحركة السكون، فيصبح السكون فيها حالةً خاصّة» (برغسون).

الأخلاق المنفتحة هي أخلاق حياةٍ ونموٍّ وحرّيّة. مَن يتبنّاها ويسعى إلى العيش بموجبها ينتقل من الخارج إلى الداخل، من مرحلة العبد إلى مرحلة ابن الله، فلا يكترث للسماء ولا للجحيم، لا للثواب ولا للعقاب، لا للمسموح ولا للممنوع، بل يجد في ذاته قواعد سلوكه ومقوّماته، ويعيش تطلّباتها برضىً وفرح. إنّه إنسانٌ حرّ.

موريس زندل Maurice Zundel، يجعل

الأخلاق الإجباريّة معارضةً لأخلاق التحرير، ويوضّح فكرته على هذا النحو:

«لا نريد إطلاقًا أن نقول إنّ الثانية تسمح بما تمنعه الأولى، بل إنّهما على مستويين مختلفَين، كما تستطيع الخادمة، الّتي أصبحت زوجة، أن تتمَّ الأشغال نفسها، ولكن بنفسيّةٍ أخرى، فتعبّر في كلّ عملٍ عن بذلها لذاتها. وهذه النفسيّة تستبطن جميع علاقاتها مع سيّدها الّذي أصبح زوجها».

ففي آخر حياة يسوع الأرضيّة، قال لتلاميذه:

«لا أدعوكم خدمًا بعد اليوم، لأنّ الخادم لا يعلم ما يعمل سيّده. فقد دعوتكم أحبّائي، لأنّي أطلعتُكم على كلّ ما سمعته من أبي» (يوحنّا ١٥/ ١٥).

ما الّذي يريد يسوع أن يقوله لنا في هذا؟

أمرٌ بسيطٌ جدًّا. فالخادم هو على مستوى الطاعة: إنّه ينفّذ فقط ما يُطلَبُ منه. يتصرّف من دون أن يعرف لماذا أُمِرَ بهذا الأمر، وبدون أن يحاول فهم نوايا سيّده.

وعلى العكس، يشعر الصديق بداخله ما يشعر به السيّد. إنّه يفهم وجهات نظره ويشاركه نواياه ويفهم مخطّطاته، وهو معتاد على رأيه. لذا، فهو قادرٌ على المشاركة مشاركةً فعّالة وذكيّة، ويصبح طرفًا في العمل المنجَز. إنّه يعمل بكلّ قلبه وكلّ طاقته،

ويبذل قصارى جهده، ويتفنّن في خلق واختراع وتخيّل حلولٍ جديدة، لأنّ هذا المشروع مشروعه، وكلّ طموحه هو أن يجعله تحفةً فريدة. هذا هو كلّ الفارق بين الصديق والخادم، بين الابن والعبد، بين المنفِّذ والمعاون، بين المأجور والشريك. فبينهما هوّة، ويسوع يحاول أن يجعلنا نعبرها.

إنّ الله يكشف لنا بيسوع المسيح مخطّطه لأجل العالم ومشروعه. وتعرض الأناجيلِ، كما القدّيسان بولس ويوحنّا، أمام عيوننا الرؤية العظيمة لمخطّط الله. فإذا وصلنا إلى هذا المخطّط، لا نكون بعدُ أحجارًا ينقّلها الله على رقعة شطرنج، ليرانا ندخل إلى مقرّات قيادة الملكوت، حيث تُعرَضُ خرائط القيادة ومخطّطات الإنسانيّة. علينا نحن أن نستوعب هذه الرؤية، وأن نفهمها من الداخل، وأن نتبنّاها. علينا نحن أن نوجّه ذكاءنا وقلبنا وطاقتنا وجميع قوانا، كي نجعل هذه المساعي تصل إلى غايتها النبيلة بطريقةٍ واقعيّة ومع الله. فنحن لم نعد مجرّد منفّذين، بل معاونين لله نفسه، مقترنين معه في مهمّةٍ مشتركة وهي أن نصنع الإنسان.

غايةٌ مفرحة وبرنامجٌ شيّق من شأنهما أن يثيرا الحميّة في عقولنا والنار في قلوبنا، وأن يقوّيا طاقاتنا.

ما أبعد هذا عن النظرة القاصرة إلى المسموح والممنوع، إلى الثواب والعقاب! حين نصل إلى هذا السموّ، نجتاز بضربةٍ واحدة جميع تلك الصغائر.

لنُعِد قراءة القدّيس بولس، الّذي يكشف لنا بطريقةٍ رسميّة مخطّط الله للإنسان والكون، «هذا المخطّط المخفيّ منذ إنشاء العالم، الّذي انكشف لنا بيسوع المسيح».

منذ ذلك الحين، لم تعد المهمّة الملقاة على عاتقنا هي أن نتبع شريعةً أو نطيع وصايا، بل أن نتبنّى رؤية، وأن نتعوّد على سر، وأن نحاول فهم **مخطّط الله العظيم في شأن العالم والإنسانيّة.**

من الأسهل لنا أن نكتفي بتنفيذ الأوامر، وأن نلجأ إلى الوصايا العشر، وأن نتبع قانونًا خارجيًّا تمامًا.

ويدفعنا إلى هذا الأمر شيءٌ من الكسل وشيءٌ من الثقل. إنّها عقليّة الموظّف الّذي يكره المسؤوليّة ويفضّل الرتابة اليوميّة. كثيرٌ من المسيحيّين هم في هذه المرحلة، ويمارسون ديانة الموظّفين. إنّهم يرتاحون في هذا المستوى، ويرفضون الانتقال إلى المستوى الأعلى، فهو يُشعِرُ بالأمان وأقلّ تطلّبًا.

لكنّ يسوع يقتلعنا من خمولنا، ويهزّ ميلنا

الطبيعيّ إلى الرخاء. إنّه يدعونا إلى أن نغامر ونشارك. ففي الإنجيل كلمة تتكرّر مرارًا، وتختصر هذه الدعوة: «اتبعني». ولا نجد في هذا النداء برنامجًا مقترحًا ولا شرائع محدّدة، بل دعوة إلى السير، إلى النظر نحو الأمام، إلى المغامرة.

فالمسألة ليست حسابًا، أو مراجعة حساب، الأخطاء والخطايا، ومعرفة هل نحن على الصراط المستقيم، والتساؤل هل سنذهب إلى السماء أو المطهر أو جهنّم، بل أن نحشد جميع طاقاتنا لنخوض المعركة.

> «لا أدعوكم خدمًا بعد اليوم... فقد دعوتُكم أحبّائي، لأنّي أطلعتُكم على كلّ ما سمعتُه من أبي» (يوحنّا ١٥/٥).

هذا هو الوحي بالضبط. إنّه لا يصبو إلى إرضاء فضول باطل نوعًا ما، أو إلى إفهامنا حقائق نظريّة عن الله والملائكة والسماء. فغايته هي أوّلًا، وقبل كلّ شيء، أن يُفهِمَنا نظرة الله إلى الإنسان، وأن يشاركنا في مخطّطه بالنسبة إلى العالم، كي نستطيع أن نشترك معه فيه. الوحي يصبو إلى إبدال النظرة الخارجيّة إلى الشريعة بدافعٍ وحافزٍ داخليّ.

فحتّامَ نظلّ على حافّة الطريق نرتعش؟ حتّامَ

نفتّش عن ضمانات؟ المسيح يدعونا إلى هجر عقليّتنا المحدودة، وإلى تجاوز تردّداتنا ومخاوفنا وخجلنا لنكتشف معه الحرّيّة الحقيقيّة.

إنّ يسوع هو النموذج الأصليّ لهذه الحرّيّة. فهو حرٌّ تجاه العادات والتقاليد، حرٌّ تجاه الرأي العام، وتجاه الجموع والكتبة والفرّيسيّين ومعلّميّ الشريعة وتلاميذه وحتّى أمّه. حرٌّ تجاه الخطيئة والممنوعات، وحتّى تجاه الوصايا العشر.

حين عابوا على يسوع عدم احترامه للسبت – مع أنّ هذا الاحترام واحد من وصايا الله العشر– أعلن أنّ خير الإنسان يفوق أيّة وصيّة.

> «إنّ السبتَ جُعِلَ للإنسان، وما جُعِلَ الإنسان للسبت. فابن الإنسان سيّد السبتِ أيضًا» (مرقص ٢/ ٢٨).

إنّ المسيح يجعلنا في أفقٍ جديد حيث يكون الإنسان الّذي يحييه الروح فوق الشريعة أيضًا. يقول القدّيس بولس هذا الأمر في رسالته إلى أهل رومة:

> «أمّا الآن، وقد مُتنا عمّا كان يأسرنا، فقد حُلِلنا من الشريعة، وأصبحنا نعمل في نظام الروح الجديد لا في نظام الحرف القديم» (رومة ٧/ ٦).

فنحن، وقد نلنا الروح القدس، تجاوزنا مرحلة

العائق والإجبار. فالإنسان لم يُجعَل للسبت، بل السبت للإنسان.

لقد أتى يسوع ليحرّر الإنسان من امتثاليّةٍ فارغة المضمون أحيانًا، ولم يستطع أساطين الدين والكتبة والفرّيسيّون ومعلّمو الشريعة فهمه. فهل فهمناه نحن بعد عشرين قرنًا من المسيحيّة؟

علينا اليوم أن نجتاز مرحلة الشريعة، لنصبو إلى ما هو أسمى منها.

علينا أن نسمح لهذا الإنسان الحرّ، المسمّى يسوع، بأن يغوينا.

علينا أن نتساءل هل نحن مستعدّون لأن نتبعه على طريق الحرّيّة أم لا.

علينا أن نذهب إلى العمق، وأن نجعل ريح الروح يقودنا.

علينا أن نجعل الشريعة الجديدة، الّتي تُختصَرُ بكلمة: «أحبب»، بدل الشريعة القديمة.

«وصيّتي لكم، وصيّتي الوحيدة، وصيّتي الأولى والأخيرة، تُختصَرُ بهذه الكلمة الوحيدة: «أحبب». ويضيف القدّيس أغسطينوس: «أحبب وافعل ما تشاء».

الفصل الثالث

الخوف من الحرّيّة

حاولنا في الفصل السابق أن نجعل أنفسنا بعيدين عن الخُلُقيّة، لنكتشف حرّيّة أبناء الله الّتي يدعونا المسيح إلى أن نعيشها.

من شأن هذه الهديّة الفاخرة أن تبهجنا وأن تسعدنا وأن تحمّسنا. إلّا أنّنا نشكّ ونتردّد ونحتار. فالحرّيّة تُرعبنا وكأنّها هديّة مفخّخة. نريدها بكلّ قوانا، وحين تُقدَّمُ إلينا على طبقٍ من ذهب، نتردّد ونتراجع ونرفضها. فارقٌ غريب بين رغبتنا الجامحة للحرّيّة والخوف الغريزيّ الّذي تُشعِرُنا به.

ما هو سرّ هذا التناقض؟ إنّ سرّه يكمن بدون شكّ في أنّ الحرّيّة تقتضي المسؤوليّة، وأنّنا نسعى إلى تفاديها. يقول لوكونت دو نوي Lecomte du Noüy:

«الحرّيّة ليست امتيازًا بل محنة».

نظنّ أنّه من السهل علينا أن نكون أحرارًا. لكنّنا ما إن نجد أنفسنا وحيدين مع ذواتنا لاتّخاذ

قرار حتّى نتراجع، لأنّنا نشعر حينها بأنّ الحرّيّة حملٌ أو نير. إنّها تهدّد أمان وجودٍ منتظمٍ جدًّا، حيث يتمّ توقّع جميع الأمور مسبقًا، وحيث لا يكون علينا إلّا التسليم والانقياد والانجراف. فتفاهات الحياة اليوميّة تعفينا عمومًا من المسيرة الشخصيّة الّتي تضايقنا وتثقل كاهلنا وترعبنا.

حينئذٍ، نلجأ إلى السلبيّة، ونعود مرتاحين إلى أغلال العادات والتقاليد والشريعة والتراث الّتي يريد المسيح أن يحرّرنا منها، وكأنّ الحرّيّة تخزُنا، فنسعى إلى التخلّص منها بأسرع ما يمكن. إنّنا نسعى بارتياحٍ إلى طرحها عند أقدام أيٍّ كان، وإلى التنازل عنها لأيّ إنسانٍ يقول لنا ما علينا أن نفعله.

لا شكّ في أنّ الكنيسة شاركت في هذه اللعبة عن طيبة خاطر. فمطالبتها بالسلطة «على الطالع والنازل» لا تخلو من الالتباس، كما أنّها ليست بعيدة عمّا في الإنسان من تواطؤٍ مع هذا الأمر. فالكنيسة وجدت نفسها مقحمة في سلطةٍ مفرطة استعملتها في غالب الأحيان، وبالغت في استعمالها، بحكم القدسيّة الّتي تحيط بكلّ سلطةٍ دينيّة. علينا أن نقرّ بأنّ موقفًا كهذا لا يستند كثيرًا إلى الإنجيل.

ألم تُبقِ الكنيسة المسيحيّ في حالة الطفوليّة

بحجّة الإيمان القويم والطاعة والخضوع؟ ألم تجعله عبدًا لسلطةٍ خارجيّة؟ ألم تولّد فيه موقف عدم الالتزام واللامسؤوليّة، وكانت نتيجة هذا زوالًا حقيقيًّا للأنسنة؟

لقد أتى المسيح ليعيد الإنسان إلى حرّيّته، لكنّ الكنيسة أعادته إلى الوصاية، وفرضت عليه نيرًا مثل نير العهد القديم في إكراهه. لقد أتى ليعيد الشريعة إلى الوصيّة الكبرى في المحبّة، فعادت الكنيسة إلى العناصر القديمة في الحلال والحرام، وصنّفتها بطريقةٍ أدق من تصنيف القوانين الموسويّة. أتى المسيح ليهبنا الروح القدس الّذي «يعلّمنا كلّ شيء»، فأبدلت الكنيسة هذا الدليل الداخلي، وجعلت مكانه أنماطًا شتّى من المقالات الأخلاقيّة والأحوال والقوانين الكنسيّة، ممّا يضاهي تشريعات كتابَي الأحبار وتثنية الاشتراع. ووجد الإنسان نفسه ثانيةً محبوسًا في نظامٍ أشدّ تصلّبًا من النظام القديم.

تُعتبَرُ العصور الوسطى وعصر النهضة ذروة هذه الحركة. فقد تجاوزت سلطة الكنيسة حينها كلّ ما يمكننا أن نتصوّره، إذ أصبحت الكنيسة سلطة عليا لا اعتراض عليها، وسادت على الملوك والأباطرة كما على الشعب المسيحيّ الطيّب الوديع، فخضع لها واحترمها. ولكي لا يفلت

شيء من قبضتها، اخترعت أكثر وسائل القهر غرابةً، وهي تتباين بين السجن والتعذيب إلى الحرق والتهديد بجهنّم. فأصبحت سيطرتها حينذاك أشدّ من أقوى الأنظمة الاستبداديّة الّتي عرفها التاريخ. كانت طبيعة سلطتها أخلاقيّة وروحيّة، أي يكفلها الله نفسه. وكانت تُفرَضُ على أعمق ما في القلوب والضمائر من حميميّة.

ما من شيءٍ يوضّح ما قلناه أكثر من ملحمة محاكم التفتيش للكاتب دوستويفسكي في قصّته «الإخوة كرامازوف».

فأحداث القصّة تجري في القرن السادس عشر بإسپانيا. كانت محاكم التفتيش في أوجها، وكانت غاية عناصر مخابرات الكنيسة هؤلاء هي اكتشاف جميع أنواع الهراطقة والقبض عليهم وجعلهم يقرّون «بأخطائهم»، بالتعذيب إذا تطلّب الأمر ذلك، وإسكات العنيدين منهم بالحرق إذا رفضوا التراجع.

إنّها أشدّ عصور تاريخ الكنيسة سوادًا. عصور علينا أن نتحلّى بالجرأة لنحدّق فيها ونقرّ بها مع كلّ فظائعها. وإنّنا نتساءل عن العلاقة بين هذا النظام وتعليم يسوع، بين هذا القمع الأخلاقيّ المنتظم والإنجيل.

كان رئيس هذه الشرطة، ويُسمّى كبير

المفتّشين، يوحي بالذعر والاحترام في آنٍ واحد. إنّه صاحب رتبةٍ كنسيّةٍ عالية، حازم، وقح، غاطس في مهمّته «المقدّسة» بأن يلاحق الخطأ ويطارد الهرطقة، لا يثق بإنسانٍ ولا بروح الله، مقتنعٌ بأنّه يعمل لخير الإنسانيّة، ويعتقد أنّ الإنسان بحاجةٍ إلى مَن يقوده لكي يعيش سعيدًا، وأنّ الله بالغ في تقديره حين خصّه بالحرّيّة.

وذات يوم، ظهر في إشبيلية إنسان مجهول لا ندري من أين أتى. وبدأ يشفي المرضى ويستقبل المنبوذين ويقيم الموتى. وأعلن الحرّيّة للجموع، وأعلن أنّ الإنسان هو المقياس الأعلى والمرجع الأخير. فهبّ الناس وانتفضوا من خمولهم، وجعلوا يرجون ثانيةً. وعرفوا فيه يسوع الّذي كان يقبّل الأطفال قبلًا في فلسطين، ويعلن ديانة المحبّة وحرّيّة الروح.

«هوذا ينزل إلى الشوارع الملتهبة للمدينة الجنوبيّة، حيث حرق في الأمس كبير المفتّشين حوالى مئة هرطوقيّ **لمجد الله الأعظم**، بحضور الملك وجلسائه والفرسان والكرادلة وحسناوات البلاط. وظهر الرجل خفيةً من دون أن يلفت الأنظار إليه. ويا للعجب، فقد عرفه الجميع.

مرّ صامتًا بين الجمع، وهو يبتسم ابتسامةً كلّها شفقة. كان قلبه يلتهب حبًّا، وعيونه تطلق

نورًا وعِلمًا وقوّةً، فيشعّ على المحبّة في القلوب ويوقظها. ومدّ يده وباركهم. كانت الفضيلة المخلِّصة تنبثق من ملامسته وحتّى من ثيابه.

وشفى عجوزًا أعمى، وأقام ابنة أرملةٍ. فابتهج الشعب ونادى الناس به. في تلك اللحظة، مرّ كبير المفتّشين من الساحة، تحيط به شرطته. وعضّ على شفته حين رأى الجموع المحتشدة. أتُراه يسوع حقًّا وقد عاد قبل أوانه؟ ما الّذي أتى ليفعله، أهذا الهرج والمرج؟ أإثارة الفوضى ثانيةً والبلبلة؟

وقطّب حاجبيه الثخينين، ولمعت عيناه ببريقٍ كارثيّ، وأشار إليه بإصبعه، وأمر الحرّاس بالقبض عليه. ولمّا كانت سلطته كبيرة جدًّا، والشعب تعوّد الخضوع له وطاعته وهو يرتعد، ابتعدت الجموع أمام شرطته بصمتٍ يشبه صمت الأموات. فقبض هؤلاء عليه، وأخذوه. وانحنى الشعب إلى الأرض انحناءة رجلٍ واحدٍ أمام كبير المفتّشين. فباركهم من دون أن ينبس ببنت شفة، وتابع طريقه.

واقتيد المعتقَلُ إلى المبنى القديم الداكن للمحكمة المقدّسة، وحُبِسَ في زنزانةٍ ضيّقة مقبّبة. وانتهى النهار وحلّ الليل... وفي الظلمة، انفتح باب الزنزانة فجأةً، وظهر كبير المفتّشين وبيده مشعلًا. تفحّص الوجه

المقدّس، ثمّ اقترب ووضع المشعل على الطاولة وقال له:

- أهذا أنت؟ أنت؟ وإذ لم ينل جوابًا أردف قائلًا: على كلّ حال، ما الّذي تستطيع قوله؟ أعرف ذلك تمامًا. لا يحقّ لك أن تضيف على ما قلتَه قبلًا. لمَ أتيتَ تزعجنا؟ فأنتَ تعرف أنّكَ تزعجنا...

هل تعرف ما سيحدث غدًا؟... سأحكم عليك، وستُحرَق مثل أسوأ الهراطقة. وهذا الشعب نفسه، الّذي كان اليوم يقبّل قدميكَ، سيسرع غدًا، بإشارةٍ منّي، ليغذّي محرقتكَ بالحطب. أتعرف هذا؟ وتمتم العجوز مفكّرًا وهو يحدّق بسجينه: ربّما!...

لقد نقلتَ كلّ شيءٍ للبابا، فلا تزعجنا إذًا قبل الأوان على الأقل... من خمسة عشر قرنًا، كنتَ تجعل حرّيّة الإيمان فوق كلّ شيء. ألم تقل مرارًا: «أريد أن أجعلكم أحرارًا؟» وأضاف العجوز بلهجةٍ ساخرة: حسنًا. لقد رأيتَ هؤلاء الناس الأحرار. وتابع كلامه وهو يحدّق في وجهه بقسوة: أجل، لقد كلّفنا هذا الأمر غاليًا. لكنّنا أنهينا باسمكَ هذا العمل أخيرًا. لقد احتجنا إلى خمسة عشر قرنًا من الكدّ لنقيم الحرّيّة. وها قد تمّ الأمر. تمّ على ما يرام. ألا تصدّقني؟ أتنظر إليّ بوداعةٍ حتّى من دون أن تشرّفني بسخطكَ؟ إعلم يا

هذا أنّ البشر لم يظنّوا قطّ أنّهم أحرار مثل الآن. ومع ذلك، فقد وضعوا حرّيّتهم عند أقدامنا. الحقّ يُقال، إنّ هذا عملنا. فهل هذه هي الحرّيّة الّتي تحلم بها؟

تريد أن تذهب إلى العالم خاوي اليدين لتعظ الناس عن حرّيّةٍ يمنعهم غباؤُهم الطبيعيّ وشعورهم بالعار عن فهمها، حرّيّة تخيفهم لأنّه ما من شيءٍ قطّ لا يُغتفَرُ للإنسان والمجتمع أكثر من هذا... ما من همٍّ أكثر ديمومةً وأكثر إلحاحًا عند الإنسان من همّ البحث عن كائنٍ لينحني أمامه... فحاجة الجماعة إلى السجود هو الألم الأساسيّ لكلّ فردٍ وللإنسانيّة بكاملها منذ بداية العالم...

أعيد عليكَ وأكرّر، ما من همٍّ للإنسان أشدّ إلحاحًا من أن يجد، وبأسرع ما يمكن، كائنًا يوكل إليه عطيّة الحرّيّة هذه الّتي جلبها معها الشقيّ عند ولادته... فبدل أن تستولي على الحرّيّة البشريّة زِدتَها نَشرًا. فهل نسيتَ أنّ الإنسان يفضّل الراحة، وحتّى الموت، على حرّيّة تمييز الخير من الشر؟ ما من شيءٍ أكثر جاذبيّةً للإنسان من حرّيّة الاختيار، وما من شيءٍ يؤلم أكثر منها أيضًا... (دوستويفسكي، الإخوة كرامازوف).

لقد نجحت الكنيسة بصعوبة في إعادة النظام، واستطاعت المحافظة عليه بفضل نظامٍ متقدّمٍ جدًّا

استغرق وضعه قرونًا. فبأيّ حقٍّ يأتي يسوع ليبلبل هذا النظام؟ بأيّ حقٍّ يقلب رأسًا على عقب هذا المجتمع المراقب تمامًا والمنظّم مراتبيًّا والمنتظم، والّذي تعمل تعشيقاته كالساعة بفضل خضوع شعبٍ بكامله خضوعًا أعمى لسلطة الكنيسة المطلقة؟

لماذا تأتي يا يسوع لتزعجنا؟ حين تريد تحرير الإنسان، تنشر الفوضى واللخبطة. **أنت تعلم جيّدًا أنّ الإنسان عاجز عن تحمّل مسؤوليّة حرّيّته.** وتعلم جيّدًا أنّه يجد سعادته في الخنوع، وتعلم جيّدًا أنّه بحاجةٍ إلى سلطة تقول له ما هو خير وما هو شر، وتملي عليه ما يجب أن يفعله أو لا يفعله. لقد بالغتَ في تقديركَ للإنسان. لهذا، فإنّكَ فشلتَ فشلًا ذريعًا.

لحسن الحظّ أنّك مع ذلك فكّرتَ هذه الفكرة الحسنة، بأن تمنح كنيستكَ السلطة الكاملة. فقد حاولت هذه أن تستُّرَ قلّة فطنتكَ وتؤوّل تعليمكَ. نحن نعرف أفضل منكَ ما يريده الإنسان. نعرف كيف نعامله ونتحكّم به. نعرف أنّه يتوق بكلّ كيانه إلى التخلّي عن حِملِ الحرّيّة الّتي تلحّ أنتَ إلحاحًا شديدًا على تقديمها إليه. فالإنسان عبد بطبيعته، وهو بحاجةٍ إلى أن يوجَّه، وأن يشعر بقبضة سيّدٍ وأن ينحني أمام سلطة.

لقد تعوّدت البشريّة منذ بداياتها على أن يقودها سادة أو كهنة أو زعماء أو ملوك أو أباطرة أو مستبدّون مثلما يُقادُ قطيع الغنم. فالشعب تابع بطبيعته، وينقاد مثل الطفل، ويرى أنّ تسليم شخص آخر مهمّة الاختيار بدلًا عنه، والرغبة لأجله، وأخذ القرار مكانه، هو أريح بكثير.

وفي أيّامنا، يسلك ميل الإنسان هذا طرقًا أخرى. فلنحاول أن نحلّل بإيجازٍ مختلف الطرائق الّتي أخضع بها إنسان اليوم حرّيّته ورهنها أو تخلّى عنها.

في المجال الاقتصاديّ، أصبحنا سجناء الشركات الضخمة -اتّحاد احتكاريّ - اتّحاد منتجين - شركات متعدّدة الجنسيّات- تمدّ شبكة مجسّاتها على الكرة الأرضيّة بكاملها، وتسعى إلى السيطرة على العالم. إنّها تعرض علينا مختلف أنواع المنتجات والقطع بوساطة غزو الدعاية واستبدادها، فتتوصّل إلى إقناعنا بأنّ كلّ هذا ضروريٌّ لنا، وأنّه مفتاح سعادتنا. ويجعلنا المجتمع الاستهلاكيّ هذا تابعين لأنماطٍ زائلة واحتياجاتٍ اصطناعيّة نسعى إلى إشباعها بأيّ ثمن. فننجرّ من أعناقنا، ونسقط في الفخّ بخزيٍ. وعندما ندخل في اللعبة وننجرف في النظام، نصبح عبيدًا له.

لقد اخترع المجتمع الرأسماليّ أيضًا طريقةً أخرى لاستعبادنا، وهي طريقة التأمينات. فشركاتٌ في منتهى الجديّة تقترح علينا جميع أنواع الضمانات الّتي تشمل مختلف مجالاتنا الحيويّة ومراحل حياتنا، بما فيها الموت نفسه.

إنّ إنسان اليوم خائف: خوفٌ من المخاطرة، خوفٌ من المجهول، خوفٌ من الحرّيّة، وهو يطلب من المجتمع أن يحميه ويُشعِرَه بالأمان ويؤمّنه ويطمئنه. ويعرف رجال الأعمال هذا جيّدًا، ويستغلّون هذا الشعور، ويبنون عليه مشاريع مربحة.

في الماضي، كانت الكنيسة هي الّتي تقوم بهذا الدور، وتستفيد منه مادّيًّا. كانت هناك ضمانات الحياة الأخرى: غفرانات كاملة، غفرانات لعددٍ من الأيّام والأشهر والسنين. لازلتُ أذكر نصًّا يُشار إليه في آخر بعض الصلوات: «غفران لسبع سنواتٍ وسبع أربعينات...» كانت إحدى عمّاتي العجوزات ترهق نفسها في بعض أيّام السنة وهي تردّد السبحة تلو الأخرى والصلاة تلو الأخرى «لخلاص الأنفس المطهريّة». واليوم، يقترح المجتمع الغربيّ، الّذي لم يعد يؤمن لا بالحياة الأخرى ولا بالمطهر ولا بالسماء ولا بالجحيم، ضماناتٍ أكثر مباشرة وأكثر واقعيّة. فهنا كما

هناك، نجد دومًا الاحتياجات العميقة إلى الأمان والاطمئنان نفسها.

على المستوى الاجتماعيّ، يحاول كلّ واحدٍ أداء دوره البسيط ليظهر في مظهرٍ لائق من خلال توافقه مع القواعد المرعيّة في المجتمع. إنّ هذه **الحاجة إلى التوفيقيّة** موجودة عند المراهق الّذي يهتمّ بمعرفة كلّ ما يخصّ الشباب، كما عند البالغ الّذي يهتمّ بصورته وبمقامه. نحن نتبنّى إذًا هذه النظرة أو هذه الطريقة من التصرّف أو التفكير أو التعبير أو تسريحة الشعر أو اللبس وفقًا لما تفرضه علينا المجموعة الّتي ننتمي إليها. ننبطح خائفين أمام رأي الآخرين، عبيدًا لـ«**ما الّذي سيقولونه عنّي؟**» نتوافق مع الذوق السائد، ونتبنّى الإقبال اللحظيّ على آخر نزوات الموضة لكي نكون أبناء عصرنا ونكون مقبولين. وقليلون، قليلون جدًّا، مَن لديهم الشجاعة في تأكيد ذواتهم، والجرأة في التمايز.

إنّ خوف الإنسان من أن يكون حرًّا، الخوف من أن يكون على طبيعته، يحثّه على الذوبان في حشدٍ عديم الهويّة، على التوافق مع قواعد الوسط المحيط، على خيانة فرادته، على إخضاع شخصيّته، على إهمال تفكيره الخاص. وقد تكلّمتُ مع كثيرين على الإنسان الأحاديّ البعد

وصاحب الفكر الوحيد والأفكار الجاهزة.

نجد هذا الميل في النهضة الحاليّة للنزعة الوطنيّة أو الإقليميّة أو القطريّة، الّتي تصبو إلى أن تعيد للفرد شعور الهويّة والأمان والانتماء. ففي الوقت الّذي تميل فيه الحدود السياسيّة إلى الزوال، نرى هذه الحدود تظهر على الصعيد النفسيّ، سواءٌ على مستوى المجموعات أو الأفراد. خوفٌ من مواجهة الغريب، خوفٌ من استقبال المجهول، ميلٌ إلى التقوقع والانغلاق القطيعيّ وإلى التعصّب الهويّاتيّ، وإلى «الشرنقيّة» الحامية.

على المستوى السياسيّ، إلى جانب الأنظمة الاستبداديّة و»الديموقراطيّات الشعبيّة» الّتي في طريقها إلى الزوال، لدينا اليوم الديموقراطيّات فقط، الّتي لا تختلف غالبًا عن الأولى إلّا ظاهريًا، لأنّنا إذا تعمّقنا فيها بعض الشيء، نلاحظ أنّ الأمر سيّان، وأنّ السلطة هي السلطة أينما كانت ومهما أطلقنا عليها من تسميات. **فما هو نصيب الحرّيّة الحقيقيّة داخل ما يُدّعى أنّها ديموقراطيّات؟**

في القرن التاسع عشر، ندّد ألكسي دِه توكفيل Alexis de Tocqueville باستبداد الأكثريّة كما استبداد الأقلّيّة الّتي تجيد التحكّم بالأكثريّة. وندّد

المؤرّخ وعالم السياسة ستانلي هوفمان Stanley Hoffmann اليوم هو أيضًا «بالمجتمع حيث ينمّي كلّ واحدٍ خصوصيّته، ولا يكترث لسواه... السياسة الّتي لازالت في يد سياسيّين محترفين وشخصيّاتٍ بارزة... تجريد مجالس الشعب من سلطاتهم... ديموقراطيّة العروض المتلفزة... دور المال في الفساد... إضعاف المؤسّسات الكبيرة أو المنظّمات الّتي تجمّع الأفراد، الخ» (صحيفة لو موند *Le Monde* ٦ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٩٤). ويعتقد أيضًا إينياسيو رامونِه Ignacio Ramonet، رئيس تحرير صحيفة *Le Monde Diplomatique*، أنّ «الليبراليّة المطلقة تميل إلى تعزيز دور بعض شخصيّات الحياة العامّة - مصرفيّون، صناعيّون، تكنوقراطيّون، أعلام - من الّذين لا يخضعون إلّا لشريعة المال، ولا يخضعون إطلاقًا للمعارضة الشعبيّة ولا يكترثون بها... وتبدو الانتخابات كمجرّد «طقوس لازمة»، ضرورة دراميّة، نوعٌ من «عيد المجانين»، يستطيع مرشّحون كثيرون في أثنائه أن يصيغوا وعودًا لا يعزمون على الالتزام بها، واثقين من عدم مقاصصتهم... المثاليّة الديموقراطيّة تتدهور، واستياء المواطنين «أو لا مبالاتهم» يتفاقم» (صحيفة *Le Monde*

Diplomatique أيّار (مارس) ١٩٩٧).

مَن المخطئ؟ نحن، نحن المستعجلون في بيع أنفسنا أو في عدم الاكتراث للأمور العامّة. نحن الميّالون إلى التنازل عن حرّيّتنا وإلى مقايضتها بالأمان والراحة، وطرحها عند أقدام حكّامنا.

ما كان للفاشيّة أو النازيّة أو الأنظمة الاستبداديّة أن تظهر وتنمو وتثبت لو لم تجد فينا تواطؤًا خفيًّا. فالشعب المرتعد، الشعب الخانع، الشعب المستسلم، لا يستحقّ الحرّيّة. يقول محلّل النفس الألمانيّ الأمريكيّ الشهير إيريك فروم Erich Fromm في كتابه المعروف: «**الخوف من الحرّيّة**»، إنّ المستبدّين يقيمون سلطتهم على رغبة البشر الغريزيّة في أن يُسادوا. فبدون هذا الرضى الضمنيّ، ما كان باستطاعة أيّ مستبدٍّ أن يهيمن.

> «فلأنّه كان هناك شعبٌ لا يرغب إلّا بأن يحكمه مستبدٌّ، وُلِدَ هذا المستبد. لولا ذلك، لما استطاع أن يتسلّم زمام السلطة، وأن يتمادى هذا التمادي».

الأنظمة الاستبداديّة موجودة لأنّ الإنسان يشعر في أعماقه بالخوف والاستسلام. فالرغبة الخفيّة في أن يُساد، والميل المكتوم إلى الخضوع، والخوف من المسؤوليّة، والمازوخيّة اللاواعية،

و«غريزة الموت» كما يقول فرويد، تحثّ الإنسان على البلادة والانسحاب.

وفي مجالٍ آخر، وهو مجال الجنس، حيث يمتزج النفسيّ بالجسمانيّ، تحثّ الشهوانيّة Libido المنفلتة الإنسان على الاستسلام لهيجان المتعة في رغبةٍ لاواعية بالذوبان في الآخر أو الالتحاق به. حلمٌ بهيجٌ في تلاشي الذات بنوعٍ من الامتزاج الأوّليّ. ويتشابه الجنس والمخدّرات في هذا الشأن لأنّ الغاية واحدة، وهي فقدان الذات في كلٍّ لامبالٍ، والعودة إلى لاوعيٍ عديم الهويّة، واختبارٌ من النمط الحلميّ والذوبانيّ. يقول علماء النفس إنّ هذه المحاولة، اليائسة غالبًا، في الغوص داخل كلٍّ شامل، هي نوعٌ من الحنين إلى أحشاء الأم من خلال **انحلال الفردانيّة وذوبانها**.

على المستوى الدينيّ، نجد الميل نفسه. فإنسان اليوم، إذ أنزل الله عن عرشه، خلق لنفسه آلهةً جديدة. ففي نفسه احتياجٌ عميقٌ إلى العبادة، وغريزة أساسيّة تحثّه على نكران ذاته وإلغائها والتضحية بها وإفنائها في ما هو أكبر من الذات. وحلّت مكان الأصنام القديمة - الآلهة والتماثيل والصور والحيوانات والكتل الصخريّة والتمائم - أصنامٌ جديدة: التنجيم والمعلّم الروحي وسادة

الفكر ونجوم الرياضة والسينما والغناء.

في الماضي، كانت تُعلَّق على الجدران أيقونات المسيح والعذراء والقدّيسين. واليوم، تُعلَّق صور النجوم والأبطال والفنّانين.

في السنة ١٩٦٥، ذهبتُ لأوّل مرّة إلى نيويورك. وبينما كنتُ أتمشّى بعد ظهر أحد الأيّام في حيّ منهاتن، رأيتُ هستيريا جماعيّة حقيقيّة. فعند منعطف الطريق، وجدتُ نفسي فجأةً أمام جمعٍ هائج: عدّة آلافٍ من المراهقين والمراهقات متجمّعون أمام مبنى، وجوههم مبتهجة ويصرخون ويتلوّون ويلتوون ويبكون ويشدّون شعر رؤوسهم ويمزّقون مناديلهم ويشدّون ثيابهم في هيجانٍ جنونيّ.

فسألتُ دهشًا: «ما الأمر؟»

فقالوا لي: لقد وصل البيتلز Beetles، إنّهم هنا، في الطبقة السابعة.

إنّ احتياجًا مشابهًا لهذا يؤمّن نجاح عددٍ من المعلّمين الروحيّين أو باعة الحكمة. فهؤلاء «المرشدون الروحيّون» القادمون من آسيا أو من كاليفورنيا، يجمعون عشرات الآلاف من الأتباع. فروحانيّتهم وطريقة تقشّفهم وتقنيّاتهم في التأمّل تسلب ألباب الغرب. وتقوم بعض البدع بإجبار الشباب على التخلّص من تأثير أهاليهم والتخلّي

التامّ عن حرّيّتهم. وحين يزرعون عقائدهم في عقولهم، يطالبونهم بالتخلّي الكامل عن أموالهم وممتلكاتهم وحساباتهم المضرفيّة وحقّهم في الميراث، ويتطلّبون منهم خضوعًا غير مشروط لأوامر رئيس البدعة، وهو رئيس يعبدونه عبادة حقيقيّة.

هذا يذكّرني بقصّة شابٍّ في العشرين من عمره، كان عضوًا في إحدى مجموعات التفكير الّتي أديرها هنا في الإسكندريّة. ذهب هذا الشابّ إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة لمدّة شهر، فعاد تائهًا تمامًا. فقد حضر ندوةً لمدّة أسبوع تديرها بدعة المون Moon، وكانت كافية. فقد تمكّنوا في أثناء بضعة الأيّام هذه من أن يغسلوا دماغه.

من السادسة صباحًا وحتّى منتصف الليل محاضراتٌ عقائديّة، مجموعات نقاش، تمارين عمليّة، أفلام، أغانٍ، ترديد شعارات، وأمور أخرى أيضًا تتوالى من دون توقّف للتمكّن من تجريد الشابّ من شخصيّته وجعلها نفوذة لتعليم البدعة. ويتضمّن هذا التعليم جرعةً محسوبةً من الروحانيّة الشرقيّة والفيزياء النوويّة والبيولوجيا الجزيئيّة والفلسفة وعلم النفس، وللكلّ هيئة علميّة فائقة الدقّة.

لقد احتاج هذا الشابّ إلى أشهرٍ عديدة كي يتخلّص من حالة الانغلاقَ الّتي وصل إليها. هذا يبيّن لكم مقدار استطاعة بعض البدع، أو بعض الأنظمة الاستبداديّة، على التحكّم بالكائن البشريّ، خصوصًا الشباب، كي يجعلوا منه ما يشاؤون، ويصادروا مشيئته وحرّيّته.

إنّ انهيار الإيديولوجيّات وفقدان الإيمان وسقوط المحظورات وإلغاء الممنوعات وغياب التوجّهات والمرجعيّات يخلق اليوم فراغًا كبيرًا وشعورًا بالغمّ والاضطراب. فمنذ أيّام **«ممنوع أن نمنع»** (شعار ثورة الشباب الفرنسي في أيّار (مايو) ١٩٦٨)، فقد كثير من الشباب قدرتهم على التوجّه فقدانًا كاملًا، وباتوا عاجزين عن التفكير، وعن أن يقرّروا ما يريدونه، وغير قادرين على تحمّل مسؤوليّة حرّيّتهم.

لا يحقّ لنا أن نترك مسؤوليّتنا البشريّة ولا أن نتخلّى عن حرّيّتنا، حتّى وإن كان حِملها يسحقنا. فهذه الحرّيّة هي قوام عظمتنا وكرامتنا. إنّها ليست ترفًا أو امتيازًا أو زيادة. إنّها واجبٌ ودعوةٌ وفرض. أن يكون المرء إنسانًا، يعني أن يختار، أن يكون حرًّا، أن يرغب في أن يكون حرًّا، أن يختار أن يكون حرًّا.

كان الإنسان في الماضي منقادًا نوعًا ما

بالعادات والتقاليد، ولم تكن لديه البتّة فرصة لأن يختار، أو كانت لديه فرص قليلة جدًّا. واليوم، مع تسارع حركة التاريخ والتغيّر السريع الّذي يميّز عصرنا، نجد أنفسنا كلّ يومٍ في مواجهة أوضاعٍ جديدة، ومجبَرين على اختياراتٍ صعبة ولا سابقَ لها أحيانًا.

أمام تعقيد هذه الاختيارات، يكمن الخطر في اللجوء إلى «اختصاصيّين». إنّها تجربةٌ جديدة، مفرٌّ جديد، طريقةٌ جديدة في التخلّي عن الحرّيّة. والخطر الكبير الّذي يهدّدنا اليوم هو السماح لحفنةٍ من التكنوقراطيّين بإدارة الكرة الأرضيّة وتقرير مصير الإنسانيّة، بحجّة أنّ المشكلات معقّدة جدًّا، ولا يمكن لأيٍّ كان أن يفهمها ويديرها. فنميل بسهولةٍ إلى الإقرار متواضعين بعدم كفاءتنا.

إليكم بعض الأمثلة:

تستطيع الطاقة النوويّة أن تبني العالم أو تدمّره. فمَن يقرّر استعمالها؟ أبعض رؤساء الدول؟ أحفنة من العلماء؟ أطبقة محدودة من التكنوقراطيّين؟ لكنّ المسألة تخصّنا جميعًا. إنّها تخصّ العالم بأسره. لا يحقّ لنا أن نتهرّب وأن نتملّص من مسؤوليّتنا تجاه رهاناتٍ كهذه. لذا، علينا أن نقرأ ونستعلم ونفكّر. لا يُطلَبُ منّا أن

نعرف أسرار الكُوارْكس لنكون قادرين على مناقشة الاختيارات الّتي تقحمنا فيها الطاقة النوويّة. فالتحجّج بالجهل أو عدم الكفاءة هو هروبٌ من المسؤوليّة. من المفروض علينا أن ندلي برأينا، وأن نلتزم بالمناقشات السياسيّة.

المشكلة الثانية أقلّ خطورة، وهي التلاعب بالمورّثات. لقد قام العلم والتكنولوجيا بقفزة كبيرة ممّا يجعلنا قادرين قريبًا على أن نفعل بالحياة والإنسان ما يحلو لنا. فما الّذي نريده؟ ومَن يقرّر ذلك؟ وإلى أيّ مدى نستطيع المضيّ في الهندسة الوراثيّة؟ هل من حقّنا أن نعدّل في الكائن البشريّ؟ ولمَ؟ كيف سيكون إنسان الغد؟ كيف نريده أن يكون؟ هناك اختياراتٌ تفرض نفسها. فمَن يختارها؟

ما كان للإنسان قطّ سلطان على الطبيعة مثل سلطاننا، وما كانت اختياراته قطّ بهذا الشكل القاطع، وما وجد نفسه قطّ أمام آراءٍ بهذه الجذريّة. فنحن في وضعٍ فريدٍ من نوعه في تاريخ البشريّة، ويصيبنا الدوار أمام التسلّط الّذي نكتسبه على الطبيعة. هل يجب إيقاف البحث؟ منع التقدّم؟ وهل المسألة هي تقدّم حقًّا؟ ويتساءل الإنسان: «كيف سيكون الغد؟» لكنّ الغد يتعلّق بإجابتي اليوم واختياري الآن وقراري الحاليّ.



«هل من حقّنا أن نعدّل في الكائن البشريّ؟
وكيف يكون إنسان الغد؟»

فلا يحقّ لي أن أستسلم. فالتاريخ سيكون كما أفعله وكما نفعله، ولا وجود للقدريّة ولا للمصير المحتوم.

لا نستطيع أن نتحجّج بصعوبة الاختيارات الّتي نواجهها اليوم لكي نتهرّب، ولا يحقّ لنا الانسحاب أمام خطورة المسائل المطروحة على ضمائرنا ولا قبول اختيارات الآخرين بسلبيّة.

أسباب عديدة تدفعنا في مصر إلى السلبيّة والانسحاب، وربّما ننمّيها مع شيءٍ من الرضى... إليكم هذا المثل: اختيار حرفةٍ أو مهنة. إلى متى سيظلّ الأهل يقرّرون مستقبل أولادهم؟ إلى متى سيجبرونهم على دراسة هذا النوع من الدروس وعلى اختيار هذه الجامعة من دون أخذ ميولهم أو قدراتهم في عين الاعتبار؟ ما أكثر الشباب الّذين انساقوا على هذا النحو من دون أن يُستشاروا إطلاقًا! ما أكثر الشباب الّذين أُرغِموا على أن يصبحوا أطبّاء أو مهندسين أو تجّارًا من دون أيّ ميلٍ إلى هذا الاتّجاه أو أيّ دعوة! ما أكثر الشباب الّذين يسلكون طريقًا خطّه لهم الآخرون خوفًا من المغامرة وما هو جديد، وخوفًا من المستقبل والمواجهة!

إنّ الحرّيّة منتهكة في جميع مجالات الوجود. فباختيار التهرّب أو القبول السلبيّ نتنازل عن

إنسانيّتنا. ومن دون انتفاضةٍ حقيقيّة، قد نتحوّل إلى آلاتٍ أو رجالٍ آليّين. فلنتحلَّ بالشجاعة ونتساءل:

- أين أنا من حرّيّتي؟
- أين أنا من قدرتي على الاختيار؟
- أين أنا من إرادتي في أخذ القرار؟

من المهمّ أن نشير هنا إلى أنّ **الإنسان لا يصل إلى الحرّيّة بمسارٍ خطّيٍّ مستقيم متجانس، بل بسلسلةٍ من الانفصالات** الّتي تمكّنه تدريجيًّا من نيل استقلاله.

الانفصال الأوّل هو انفصال الولادة: لا ينال الوليد استقلاليّته إلّا باقتلاعٍ مؤلم، بموتٍ حقيقيّ. الانفصال الثاني هو الانفصال الخدميّ: على الرضيع أن ينفصل عن ثدي أمّه الحنون اللطيف لكي يعتمد فقط على فكّيه. الانفصال الثالث هو الذهاب إلى المدرسة: فيه تكفّ الخليّة الأسريّة الحامية عن أن تكون حاضرة ليشعر الطفل بالأمان. وفجأةً، عليه أن يواجه وسطًا غريبًا عجيبًا. الانفصال الرابع هو اختيار المهنة أو الوظيفة. الخامس هو الزواج، حيث يبتعد الفرد نهائيًّا عن الوسط الأسريّ. وهكذا، يحقّق الإنسان نفسه من انفصالٍ إلى انفصال، ويصبح فردًا وشخصًا، ويبني هويّته ويكتسب فرادته.

وعلى عكس هذا الميل التصاعديّ، الّذي يحثّ الإنسان على التخطّي وعلى استقلاليّةٍ تدريجيّة، هناك الميل الآخر، تنازليّ أو أنتروبي (خموليّ)، وكأنّ حنينًا خفيًّا يجرّه نحو الحالة اليرقانيّة الجنينيّة، نحو الماغما المبهمة واللاوعي البدائيّ. وتنبثق هذه الديناميكيّة التنازليّة من غمٍّ تجاه المجهول وحاجةٍ إلى الأمان وافتقادٍ إلى الشجاعة وخوفٍ من مواجهة العالم ومجابهة الحياة وتحمّل الشخص لاختياراته وحمل مسؤوليّاته واستعمال حرّيّته.

ألم يبدأ تاريخ الخلاص برحيلٍ إلى المجهول؟

«وقال الربّ لأبرام: انطلق من أرضكَ وعشيرتكَ وبيت أبيكَ إلى الأرض الّتي أريكَ» (تكوين ١٢/١).

كلّ دعوة هي اقتلاع ونداء من أجل التخطّي. وهو النداء نفسه الّذي يوجّهه يسوع إلينا:

«قم وامشِ!»

«انطلق! اذهب! ارحل!»

«تعالَ اتبعني!»

إنّ هذه الدعوة إلى المخاطرة هي شرطٌ لتحقيق الذات.

«مَن أراد أن يحفظ حياته يفقدها، ومَن فقدها حفظها».

إنّ المسيح يقتلعنا من راحتنا وثقلنا وضماناتنا

وقناعاتنا وميلنا إلى النظر نحو الوراء وتعلّقنا بالماضي وتقهقرنا نحو فتور الحشا الوالديّ. إنّه قوّة اقتلاع تهزّ خمولنا، وتشجب انسحابنا، وتكشف أعذارنا، وتحطّم أغلال عاداتنا، وتحرّرنا من عبوديّاتنا. لهذا، فإنّه يرسل إلينا روحه الّذي يساعدنا من الداخل على أن ننمو، ويحثّنا على النضج، ويعيد إلينا حرّيّتنا المسلوبة، ويعيدنا إلى إنسانيّتنا، وينهضنا، ويدفعنا إلى الانخراط في مغامرة الحرّيّة الكبرى.

لقد غامر يسوع هذه المغامرة بنفسه قبل أن يدعونا إليها، وقد كلّفه الأمر غاليًا. لأنّه تجرّأ أن يعلن كلمة عدلٍ في وجه جميع التسويات والالتباسات، كلمة حقٍّ، كلمة حرّيّة، فأصبح القوّة الثورويّة الكبرى في التاريخ.

لقد دفع حياته ثمنًا لذلك.

كان رمزًا للمعارضة، ومات في الثالثة والثلاثين من عمره لأنّه تجرّأ على الالتزام بهذا الطريق.

ونحن أيضًا، إذا كانت لدينا الشجاعة في أن نتبعه، فلنعلم أنّنا سائرون بدون شكٍّ نحو المجابهة. «ما كان الخادم أعظم من سيّده» (يوحنّا ١٣/١٦). فمَن يريد خوض معركة الحرّيّة، عليه أن يعرف أنّه سيواجه العقبات

والمعارضة والمقاومة والرفض والاضطهاد: «فكما أنّهم اضطهدوني، كذلك سيضطهدونكم» (يوحنّا ١٥/ ٢٠). فهل أنا مستعدٌّ لقبول التحدّي؟ هل أنا مستعدٌّ لمواجهة مجتمعٍ غارقٍ في التسويات ومبنيٍّ على الكذب، وقد أفسدته سلطة المال؟ هل أنا مستعدٌّ للانخراط في المعركة الكبرى للإنسان، وأن أقول أنا أيضًا كلمة عدالةٍ وحقٍّ وحرّيّةٍ؟

الفصل الرابع

الالتزام، حرّيّة الـ «نـَعَم»

لا يكتشف الطفل نفسه حرًّا إذا قال: «نعم»، وإنّما إذا قال: «لا». ويقول لنا علماء النفس، إنّ إثبات الشخصيّة يظهر خصوصًا، وبطريقةٍ واضحة، في عمر السنتين. **السنتان هما سنّ اللا**. سنّ الرفض الدائم والعناد والإصرار والعصيان.

ويربط فرويد هذا الميل بالمرحلة الشرجيّة، حيث من المتوقّع أن يختبر الطفل شعورًا بالقدرة الفائقة بسبب سيطرته على أمعائه واستعماله رِجليه وعضلاته. فمن خلال هذا اللا، الّذي يلفظه الطفل متحدّيًا العالم، يتذوّق باستمتاع ضمنيّ قدرته المولودة حديثًا على الاستقلال. إنّها طريقته في المطالبة بحقّه في الحرّيّة.

ويعود موقف الرفض والمعارضة الدائمة هذا إلى الظهور ثانيةً عند المراهق، حيث تعبّر التوتّرات مع الأهل والأساتذة والمجتمع عن شعورٍ متجدّد في الاعتماد على الذات والاستقلاليّة.

كلّ هذا يدفعنا إلى الظنّ أنّ الحرّيّة تكمن في القدرة على قول «لا»، بدليل أنّ سارتر جعل منها «قدرة الإفناء». فالحرّيّة تثبت نفسها بالنفي.

أمام هذا الموقف، سنحاول اكتشاف حرّيّةٍ من نمطٍ مختلفٍ تمامًا، وهي أصدق وأعمق. إنّها حرّيّة «النَعَم».

الحرّيّة الّتي تقول «لا» تعمل على مبدأ: خالِف تُعرَف. إنّها بحاجة إلى مواجهة الآخر والاصطدام به كي تثبّت نفسها. لاشكّ في أنّ هذا الموقف، وهو ضروريّ في البداية، ليس إلّا حرّيّة غير كاملة، تسعى جاهدةً إلى أن تعي ذاتها، وهي لا تزال مغشّاة العينين بهذا الاكتشاف، وبالأهميّة الّتي تعيره إيّاها. **الحرّيّة الحقيقيّة، وهي حرّيّة البالغ، لا تخشى أن تقول نعم بدون حرج،** وبدون أن تشعر بأنّ هذا يقلّل من شأنها. فحرّيّة القبول والرضى هذه هي حرّيّة واثقة بنفسها وسيّدة ذاتها. حرّيّة لا تحتاج إلى: خالف تُعرَف. إنّها أصعب الحرّيّات وأسماها وأصدقها.

الحرّ حقًّا هو إنسان، من شدّة سيطرته على نفسه، لا يحتاج إلى إثبات ذاته لذاته، أو إلى أن يبرهن للآخرين بأنّه حر.

فلنتّفق أوّلًا على معنى كلمة حرّيّة الّتي تعوّدنا

أن نخلطها بحرّيّة الاختيار. إنّ مزيج الحرّيّة وحرّيّة الاختيار يجعلاننا في قلب التناقض. لماذا؟ لسببٍ بسيط وهو أنّني حين أقرّر في شأنٍ معيّن ألغي في الآن نفسه إمكانيّة قرارٍ آخر في الشأن نفسه. إذا كان عليّ أن أختار بين آ و ب، فإنّي أظلّ حرًّا ما دمتُ لم أختر. ولكن، ما إن قمتُ بهذا الاختيار، حتّى أكفّ عن أن أكون حرًّا. إذا اخترتُ آ، لا أستطيع قطّ أن أختار ب. فاختياري يقيّدني، حتّى إنّني أستطيع القول حقًّا: حين أمارس الحرّيّة فإنّها تلغي نفسها بنفسها.

مَن يريد أن يظلّ حرًّا على الدوام عليه ألّا يختار. وكثيرون **يقضون حياتهم هكذا وهم يخلّصون حرّيّةً كامنة، ويمتنعون عن إمكانيّة اتّخاذ قرار ذات يوم، فيموتون من دون أن يفعلوا شيئًا في حياتهم**. أهذه الصورة الكاريكاتوريّة بعيدة يا ترى عن الواقع؟

هنا نعود إلى موضوع الفصل السابق، **الخوف من الحرّيّة**. فمن الناس مَن يدركون إدراكًا شديدًا خطورة القرار، ويعتبرون أنّ الاختيار الّذي سيختارونه مهمّ جدًّا. فيحسبون ويحسبون جميع النتائج، ولا يقرّرون البتّة.

مات خالي عازبًا وهو في الرابعة والثمانين من

عمره. كان يقول لنا مازحًا، «الزواج أمرٌ مهمٌّ جدًّا، ولا يكفي عمرٌ بكامله للتفكير فيه». لقد احتفظ لنفسه حتّى الموت بحقّ اختيار امرأة حياته، فمات من دون أن يختارها.

لم يكن حمار بوريدان أفضل منه. فقد كان جائعًا وعطشانًا، ومات وهو محتار بين رزمة تبنٍ ودلو ماء. إنّه لم يتوصّل إلى أن يقرّ هل عليه أنْ يبدأ بالأكل أم بالشرب.

الحرّيّة الّتي تتردّد وتتحفّظ وتحتاط هي حرّيّة وهميّة خياليّة حالمة. إنّها فراغ صرف وغياب صرف وإمكانيّة صرف ومخزون صرف وعدمٌ صرف.

أتساءل أمام صفحةٍ بيضاء: ما الّذي أفعله بها؟ هل أرسم عليها منظرًا طبيعيًّا؟ أقصّها بأشكالٍ زخرفيّة؟ أطبّقها لأصنع منها طائرة؟ مركب؟ إذا اخترتُ القصّ لن أستطيع الرسم. وإذا اخترتُ الرسم لن أستطيع تطبيقها لصنع طائرة أو مركب. وإذا تردّدتُ أترك الصفحة بيضاء.

لديّ ثلاثة أسابيع إجازة. رائع! ما الّذي سأفعله فيها؟ لديّ اختيار بين البحر والجبل، القراءة أو الموسيقا أو الأشغال اليدويّة أو العمل في الحديقة... أميل إلى هذه كلّها ولا أتوصّل إلى قرار. وتمرّ الأسابيع الثلاثة وأنا على أريكتي

أفكّر في كيفيّة قضاء وقت العطلة.

ما أكثر الناس الّذين يقضون أفضل سني حياتهم وهم يتساءلون عمّا يريدون أن يفعلوه فيها! فوجودهم ترنّحٌ متردّد على الدوام.

بالإضافة إلى التردّد، هناك الكسل، أو الخوف الّذي يشلّ الحركة. تذكّروا مثل الوزنات: «يا صديقي، ما الّذي فعلتَه بالوزنة الّتي سلّمتُكَ إيّاها؟ لمَ دفنتَها بدل أن تستثمرها؟ - لقد خفتُ... » (متّى ٢٥/ ١٤-٣٠).

عندما سيحاسبني الربّ، عليّ ألّا أقول: «هي ذي الوزنة الّتي سلّمتني إيّاها، استعِد مالكَ، إنّي أردّه لكَ كما سلّمتَني إيّاه». فالمال الّذي نخبّئه ولا نستثمره يفقد قيمته ولن يساوي شيئًا. وحياةٌ لا نغامر بها في كلّ يوم وكلّ لحظة لا قيمة لها ولا فائدة منها. وحرّيّة لا تلتزم ولا تخاطر هي فراغ صرف وغياب صرف ووهمٌ صرف.

يقول بعضهم: «أنا مع الحذر، لا أحبّ المخاطرة. إذا أخطأتُ يصيبني الفشل والعار. فلنكن حذرين!»

حذرين؟... وماذا بعد؟ الحذر هو «راوح مكانك». قبول وضعٍ راهن. منطق الموظّف الّذي لا يقرّر البتّة مخافة ارتكاب الخطأ ونيل اللوم. إذا كنتَ تبحث عن السلام والراحة

والأمان، لا تفعل شيئًا، وستكون واثقًا من أنّكَ لن تخطئ. الحذر هو حكمة العجوز الّذي أصبحت الحياة بكاملها وراءه، ولا يرجو شيئًا.

أمّا التحرّك والسير والخروج والعمل فتعني المخاطرة في السقوط والخطأ والتألّم. ولكن، مَن لا يخاطر بشيء لا ينال شيئًا.

المخاطرة ملازمة للمغامرة. وما من شيءٍ مقرّرٍ مسبقًا، ولا يمكننا عمل شيءٍ بدون قليلٍ من الجنون. على الخوف من الفشل ألّا يشلّنا ويمنعنا من المخاطرة ومن الانطلاق ومن الإقدام على عمل. يقول عمّانوئيل مونييه Emmanuel Mounier:

«لاننتظرنّ استقرار شركةٍ كي نؤسّسها».

في بيتنا القديم بمنطقة الإبراهيميّة في الإسكندريّة، علّق أبي على جدران غرفتنا المخصّصة للدراسة لوحاتٍ كُتِبَت عليها بعض الحِكَم الّتي أثّرت فيّ طوال حياتي. تقول إحداها:

«المحتارون يخسرون نصف حياتهم والحيويّون يضاعفونها».

وقد جعل أخي جاك بضع الكلمات هذه مرجعًا لحياته، فأصبح إنسان القرارات السريعة، يكره التردّد والحيرة، ويجرؤ دومًا على مباشرة

مشاريع كبيرة. لقد أخطأ في بعض الأحيان، لكنّ حيويّته وروح المغامرة الاستثنائيّة لديه جعلا وجوده غنيًّا بشكلٍ فريد.

قال أحدهم، إنّ إمكانيّة ارتكاب الخطأ بين الذين يفكّرون كثيرًا والّذين يفكّرون قليلًا قبل اتّخاذ قرار هي نفسها تقريبًا. ونلاحظ أيضًا أنّ نسبة حوادث المرور بين السائقين الذين يقودون ببطءٍ والّذين يقودون بسرعة ليست نفسها وحسب، بل إنّها أخفض بكثير عند المسرعين منها عند الذين يقودون بحذرٍ شديد.

تردّد، حيرة، انتظار، مواربة، خوف من الفشل، حججٌ كثيرة من أجل الخمول. **علينا أن نندفع**. لا يهمّ إذا كانت بدايتنا سيئة، فسوف نكرّر المحاولة. لا يهمّ إذا سقطنا، فسوف ننهض. لا يهمّ إذا أخطأنا، فسوف نعيد. المهمّ هو أن نجرؤ، أن نلعب اللعبة، أن ندخل في المعمعة.

يقول أحد أبطال الحرب: «النصر للشجعان». النصر هو لمن يجرؤ على الهجوم، لمن يسبق، لمن يهاجم. وهذا يصحّ في فنّ الحرب كما في فنّ الحياة. **فأفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم**. مَن يبقى في الدفاع خائفًا، يكون واثقًا تقريبًا من أنّه سيخسر.

يقول سارتر جملة رهيبة لمَن يقون على الخطّ خوفًا من التورّط والتعرّض للخطر:

«أياديهم بيض، ولكن ليس لديهم أيادٍ».

الأيادي البيض والأيادي النظيفة هي أيادٍ لم نستعملها قط، وبالتالي لا فائدة منها. فأيدينا صُنِعَت لتتّسخ. صُنِعَت لعجن العجين الّذي سيكوّن العالم.

العيش يعني الاختيار. فلا نتركنّ الحياة تختار لنا. لا نتركنّ الآخرين يقرّرون لنا. لا نتركنّ الظروف تجرّنا وراءها. لا نكوننّ في مقطورة الحوادث... لا ننتظرنّ أن نوبَّخ ونُدفَع ونُحرَج لكي نتقدَّم. لتكن لدينا الشجاعة بأن نتقدّم حياتنا بدل أن نتبعها.

يقول بعضهم: «أفضّل ألّا أختار». ولكنّ عدم الاختيار هو اختيار أيضًا: إنّه اختيار عدم الاختيار. فنحن **مُجبَرون على الاختيار**. «محكوم علينا بالحرّيّة» كما يقول سارتر، وما من وسيلة للإفلات منها.

فعلامَ التردّد إذًا؟ علامَ الانتظار؟ لننخرط في المعمعة برضانا وبحرّيّتنا وبوعينا. لنتحمّل مسؤوليّة حياتنا ونعمل منها شيئًا.

إنّ حياتي قطعة من طين. كلّ اختيار من اختياراتي يطبع فيها شيئًا منّي. كلّ دفعةٍ صغيرة،

كلّ ضربة معول، تزيد من إظهار سمات وجهي الأبديّ. ومن قطعة الطين هذه، عديمة الشكل أصلًا، يبرز ببطءٍ الكائن الّذي قرّرتُ أن أكونَه، وستكون شخصيّتي الحقيقيّة ثمرة اختياراتي الّتي لا تُحصى طوال الأيّام والشهور والسنين.

كلّ إنسانٍ يخلق نفسه من خلال القرارات الّتي يقرّرها والاختيارات الّتي يختارها.

فالوجه الجسديّ الّذي نقله إليّ أهلي، والّذي تعكس لي المرآة صورته، ليس وجهي. هذه السمات الّتي تحدّدها الجينات والكروموزومات الموروثة من أجدادي ليست لي. وجهي الحقيقي هو الّذي يتكوّن ببطءٍ في داخلي من اختياراتي المتتابعة، فهو الوحيد المهمّ حقًّا. وليس لحياتي كلّها غاية إلّا أن تبرزه وتجعله ينبثق، وهو سيكون وجهي في الأبديّة.

يطرحون عليّ في بعض الأحيان السؤال: «لِمَن سأشبه في الحياة الأخرى؟ هل سيكون لي وجه طفولتي أم مراهقتي أم وأنا في الأربعين أم في الثمانين؟» وأجيب: «لا شيء من كلّ هذا!» فالقدّيس يوحنّا يقول لنا: «وما أُظهِرَ بعدُ ما سنصير إليه» (١ يوحنّا ٣/ ٢). سيكون وجهي كما سأصنعه بلمساتٍ متتالية، وسيبرز في بهائه الأخير يوم ولادتي الثانية.

هذا الوجه الّذي لا يعرفه أحد، ولا يستطيع أحد أن يتخيّله، سيكون مفاجأة وانبهار لكلّ واحد.

مثلٌ آخر يساعدنا على فهم أنّ هذه الولادة هي ثمرة مخاضٍ طويل الأمد ومؤلم: التمثال المخفيّ في قلب كتلة رخامٍ خام وعديمة الشكل لا يبرز إلّا بآلاف ضرباتِ الإزميل. فيجعل الفنّان شظايا الرخام تتطاير الواحدة تلو الأخرى، ويمكّن العمل الخالد من أن يظهر في كلّ بهائه من غلافه الأصليّ الّذي كان يحبسه.

إنّ كتلة الرخام هي أنا. والفنّان هو أنا أيضًا. ومن تأثيرهما المتبادل تولد ذاتي الحقيقيّة. فبسلسلةٍ من التخلّيات والتضحيات، تصبح هذه الولادة ممكنة. الاختيار **تضحية**. الاختيار تخلٍّ عمّا كان يمكنه أن يكون من أجل ما سيكون. فالنحّات لا يُظهِرُ الشكل إلّا بالتشذيب. إنّه لا يمكّن التمثال من الظهور إلّا بتطيير الشظايا عديمة الفائدة الواحدة تلو الأخرى. «فالوجه المستخرَج من الحجارة مصنوع من كلّ الوجوه المرفوضة» (أنطوان دو سانت إكزوپيري). وهكذا، فإنّ كلّ اختيارٍ من اختياراتي ينبذ اختياراتٍ أخرى ممكنة. ومن خلال سلسلة تضحياتٍ وتخلّيات، أتوصّل ببطءٍ إلى إبراز

حلمي الحقيقيّ.

الطين الّذي أشكّله، والرخام الّذي أنحته، وصحيفة الورق الّتي تستقبل رسمي، هي صور ورموز لحرّيّتي.

الإنسان هو الكائن الوحيد في العالم القادر على الاختيار بنفسه وعلى أن يريد نفسه بنفسه وأن يبدع نفسه. الإنسان هو ثمرة حرّيّته واختياراته. وهو بعكس المعادن الّتي ثبتت وجمدت مرّة واحدة وإلى الأبد، وبعكس الحيوان المكيَّف بوراثته وغرائزه وحتميّاته. فما يصنع الإنسان هو قدرته على سيادة طبيعته وتوجيه غرائزه واختيار طريقه وقيادة نفسه وتشكيل ذاته. ففي هذا مجده وسعادته وكرامته.

ما من أحدٍ أفضل من سارتر عرف كيف يوضّح هذه النقطة. فبالنسبة إليه، ليس للإنسان طبيعة بالمعنى الدقيق. إنّه ما يقرّر أن يكونه. إنّه حرّيّة صرف. ويختلف عن الحيوانات في أنّه يتّصف بالمرونة والليونة والتأقلم. إنّه ليس ثابتًا جامدًا. فهو قادر على إبداع نفسه وتشكيلها، وعلى أن يصبح ما يقرّر أن يكون، انطلاقًا ممّا لديه وممّا هو. عليه هو أن يختار اسمه. هذا الاسم الّذي يتكلّم عليه سفر الرؤيا، والّذي يعبّر عنه حقًّا (رؤيا ٢/١٧).

الحرّيّة مغامرة رائعة في خلق الذات بالذات وتحقيق الذات بالذات وولادة الذات بالذات. إنّها إنجاب الذات بالذات.

لا تقتصر الحرّيّة على الاختيار بين آ و ب، بل اختيار الذات بالذات وإراداتها وتحقيقها.

إنّ هذه الحرّيّة النهائيّة تبرز في نهاية جميع اختيارات حياتنا، وتمثّل محصّلتها النهائيّة. إنّها تنبجس في نهاية المطاف، حين ينهي الإنسان مساره. فلا تكون حينها فعلًا وإنّما حالة.

فالحرّيّة هي في آخر الأمر صيرورة للذات. إنّها تحقيق للذات بالذات. في هذه المرحلة، لا يكون الإنسان محدودًا بطبيعته ولا غرائزه ولا أهله ولا تربيته ولا مجتمعه، بل بنفسه.

وكلّما زاد الإنسان تحديد نفسه كان أكثر حرّيّة. فمَن لم يختر ليس حرًّا حتى الآن. الحرّ الوحيد هو مَن يختار أن يختار، ومَن يلتزم.

الحرّيّة الّتي حدّدت نفسها بنفسها هي أصدق وأعظم وأقوى وأسمى من الحرّيّة الّتي تبقى في حالة الغموض، في حالة الإمكانيّة أو المخزون أو الوهم. **فالحرّيّة ليست من المعطيات وإنّما هي مشروعٌ ونداءٌ ودعوة. إنّها ليست في أوّل الطريق، بل في آخره.**

فحين يُطرَح السؤال: هل الإنسان حرّ؟ علينا

أن نجيب: الإنسان حرٌّ ضمنيًا، ومدعوٌّ إلى أن يكون كذلك. ففي البداية، تكون حرّيّته محبوسة بكاملها في عقدةٍ من الحتميّات، وغاطسة في الحيوانيّة والنزوة والغريزة. ولا تصبح وفيّةً لذاتها إلّا بالتخلّص من هذه الأمور.

الحرّيّة محاولة، سعي، بحث، طريق يجب سلوكه، مثاليّة يجب بلوغها. إنّنا نتعلّمها ونبنيها من خلال اختياراتٍ كثيرة جدًّا تتضمّن تجرّدًا مستمرًّا عن كلّ ما يعبّر عن طبيعتنا العميقة.

نحن أحرار بمقدار ما نتحرّر، وهو عمل يدوم حياة بكاملها.

الحرّيّة الحقيقيّة لا تكترث للحرّيّة، إنّها منفصلة عن ذاتها وحرّة بالنسبة إلى نفسها. والإنسان الحرّ حقًّا هو حرّ تجاه حرّيّته. فمَن يغار على حرّيّته، مَن يريد حمايتها وإنقاذها وحفظها كما نحفظ كنزًا، يصبح سجينًا لها، وما من استعبادٍ أسوأ من هذا. فلنسمع ما يقوله لنا جبران خليل جبران:

> «رأيتكم تسجدون لحرّيّتكم، وتعبدونها كالعبيد الّذين يتّضعون أمام مستبدٍّ ويعظّمونه وهو يدمّرهم... أجل، رأيتُ الأحرار منكم يحملون حرّيّتهم كالنير والأغلال... لن تكونوا أحرارًا إلّا حين تصبح رغبتكم في بلوغ الحرّيّة سرجًا، وحين تكفّون عن الحديث عن

الحرّيّة على أنّها هدف ونهاية مطاف... ففي الحقيقة، ما تسمّونه حرّيّة هو أغلظ سلاسلها، مع أنّ حلقاتها تلمع في الشمس وتبهركم. وما هذا إلّا أجزاء من أنفسكم، تريدون إزالتها لتكونوا أحرارًا... فحين تفقد حرّيّتكم عوائقها، تصبح هي نفسها عائق للحرّيّة الأعظم».

الحرّيّة مثل الحياة: إنّها بعيدة عن ذاتها، ولا نجدها إلّا إذا لم نتمسّك بها.

«مَن أحبّ حياته يفقدها» (يوحنّا ١٢/ ٢٥).

فحبّة القمح المحفوظة في الكيس ببخلٍ تتعفّن ولا تأتي بثمر. فإذا قبلنا أن نضحّي بها ونتركها في الأرض، ستتحوّل إلى نبتةٍ كبيرة.

«إنّ شريعة الحياة الكبرى هي الموت، وشريعة الموت الكبرى هي الحياة».

وفي آخر الأمر، يلاحظ الإنسان أنّ آخر كلمةٍ للحرّيّة هي المحبّة. فالإنسان يحقّق ذاته حين ينساها، يفقدها في الثمار الّتي ستثمرها، والطفل الّذي ستلده، والعمل الّذي ستتمّه. والمعنى النهائيّ للحرّيّة هو المحبّة.

حرٌّ لماذا؟ حرٌّ لأحبّ. الحرّيّة ليست غاية في حدّ ذاتها. إنّها وسيلة للمحبّة. فالمحبّة أسمى ما في الوجود من قيم. ومَن يضحّي للمحبّة، تتمّ الحرّيّة فيه وتنال مذاق المحبّة.

المحبّة هي المرحلة المضيئة للحرّيّة وتاجها وذروتها.

كلّما ازددتُ محبّة، ازددتُ بذلًا لنفسي، وفقدانًا لها، وازددتُ حرّيةً. وكلّما اشتدّت المحبّة، ازداد صدق حرّيّتي. كلّما رَحِبت المحبّة، توسَّعت حرّيّتي. وبمقدار ما أحبّ أصبح حرًّا. فكمّيّة حرّيّتي وأبعادها هي كميّة محبّتي وأبعادها.

المحبّة التزام. أن يحبّ المرء يعني **أن يلتزم**.

إنّ نَعَمَ الزواج الّذي يربط الطرفين بعضهما ببعضٍ إلى الأبد هو فعل يتخلّى فيه كلّ واحدٍ عن حرّيّته ليخاطر في مغامرة الحبّ.

هناك طريقة واحدة في أن نكون أحراراً وهي أن نحب. وهناك طريقة واحدة للحب وهي أن نلتزم. فكلّما كان الالتزام شاملًا ونهائيًّا تجسّدت الحرّيّة.

ولأنّ الله حرّ تمامًا، أراد المخاطرة بحرّيّته في المغامرات الثلاث الّتي نسمّيها: الخلق والتجسّد والفداء.

> «فمع أنّه في صورة الله، لم يعدّ مساواته لله غنيمة، بل تجرّد من ذاته متّخذًا صورة العبد وصار على مثال البشر، وظهر في هيئة إنسان» (فيليبي ٢/٦-٧).

لقد فقد كيانه وحياته ونفسه. لا يمكننا أن نتخيّل مغامرةً أكثر جرأة، أكثر تهوّرًا، أكثر رهبة.

لقد التزم الله، ارتبط، خاطر، لأنّه حرٌّ تجاه ألوهته، حرٌّ تجاه حرّيّته. فنَعَم الخلق ونَعَم التجسّد ونَعَم الجلجلة ليست إلّا تعبيرًا عن نَعَمٍ أعمق بكثير، وهي الّتي تبني **كيان الله نفسه**. ويقول لنا القدّيس بولس هذا الأمر بوضوح: «المسيح لم يكن نَعَم ولا، بل نَعَم» (٢ قورنثوس ١/ ١٩).

وتظلّ حرّيّة الله النموذج الأصليّ لكلّ حرّيّة. فلأنّ الله حرٌّ بشكلٍ لا يمكننا تصوّره، التزم بطريقةٍ لا يمكننا تخيّلها، وأتمّ التزامه حتّى آخر ما هو ممكن، حتّى آخر ما هو مستحيل.

منذ ذلك الحين، أصبح هذا الرجل المسمّر على الصليب أقصى تعبير عمّا يمكن أن تعنيه الحرّيّة القادرة على المضيّ قدمًا حتّى الالتزام الكامل والمطلق للمحبّة.

الفصل الخامس

الجحيم، حرّيّة الـ «لا»

سنعالج في هذا الفصل موضوعًا لم يعد موضوع الساعة في أيّامنا. إنّه موضوع **الجحيم**.

يثور الإنسان المعاصر على فكرة الجحيم ويرفضها بكلّ جنبات كيانه، ويعتبر، وهو على صواب، **أنّ هناك عدم توافقٍ كامل وتناقضٍ تام بين إله المحبّة ووجود الجحيم**. فإمّا أنّ الله طيّب والجحيم غير موجود، أو الجحيم موجود والله وحشٌ.

فنحن، المخلوقات البائسة المشبعة بالأنانيّة، لا نتحمّل رؤية كائنٍ يتألّم من دون أن نبذل قصارى جهدنا لنساعده. فهل خلق الله الكلّيّ الطيبة الجحيم لتتعذّب فيه كائنات إلى الأبد؟ هل يمكننا أن نتصوّر أنّ الله يستطيع الاستمتاع مرتاحًا بهناءٍ أبديّ، بينما هناك كائنات منبوذة إلى الأبد؟ أتُرى الله أقلّ طيبة من الإنسان؟ أيُعقَلُ أن يكون الخالق أدنى من خليقته؟ إذا كان الله إلهًا، أي قمّة في المحبّة، فالجحيم أسطورة.

ومع ذلك، من الصعب إلغاء الجحيم من نصوص الإنجيل. فقد تكلّم المسيح عليه أكثر من مرّة بطريقةٍ واضحة، وتتكرّر هذه الفكرة غالبًا في أكثر من مقطعٍ في العهد الجديد.

نحن في طريقٍ مسدود، طالما لم نجعل الجحيم في منظاره الحقيقيّ.

لنقل في البداية، كفكرةٍ أولى، **إنّ الجحيم هو فدية الحرّيّة**. إنّه الإمكانيّة الّتي تتمتّع بها الخليقة الروحيّة لكي تقول لا للرب، لا للحياة، لا للمحبّة. وإلغاء هذه الإمكانيّة يعني إلغاء الحرّيّة، وإلغاء الحرّيّة يعني إلغاء الإنسان.

بدون حرّيّة، ما من جحيم، وما من سماء أيضًا.

إذا كان الجحيم هو إمكانيّة اللا، فالسماء هي إمكانيّة النَعَم. فإمّا تلغون الاثنين أو تحافظون عليهما. فالواحد لا يكون بدون الآخر.

لكي نفهم الجحيم، من المهم أن نفكّر في ما نعنيه بكلمة «سماء». نحن نعتقد أنّ السماء سعادة لانهائيّة تُقدَّمُ لنا على طبقٍ من ذهب. لو كان الأمر كذلك، لما كان لدينا اختيار، وسيكون محكومٌ علينا، نوعًا ما، بالسماء، مجبَرون على السعادة. فأيّ طعمٍ لسماءٍ كهذه؟ وأيّة قيمةٍ لسعادةٍ تُنالُ سلبًا؟ وما فائدة غبطةٍ لم تُستحَق؟

لذا، **حين يثير يسوع موضوع السماء، لا يكلّمنا على «السعادة»**، بل على «المجد». ففي السعادة ما هو عديم الطعم، أنّها تشير إلى مُتَعيّةٍ رخيصة، مرتبطة بعض الشيء بفكرة الاستهلاك. مثلّجاتٌ لذيذة نتذوّقها في مقهى.

السماء هي شيء آخر، شيءٌ مختلفٌ تمامًا. إنّها سعيٌ وفتحٌ وانتصار. **السماء الّتي لا تُكتسَب لن تكون سماء.** على كلّ حال، هناك تعبيرٌ يقول: «يربح السماء». فالسماء تُربَح.

السماء هي المجد. بوجهٍ عام، نتكلّم على «المجد السماويّ». تشير هذه الكلمة إلى واقعٍ مُكتسَب نتيجة الجهد والصراع والتجاوز. ففي مفهوم المجد شيءٌ من السحر مرتبطٌ بفكرة التحدّي والاستحقاق والتتويج والمآثر والإتمام.

تخيّلوا أولادًا يتحضّرون لسباق. إنّهم هنا، باللبس الرياضي، على خطّ البداية، مسرورون ومرتعدون. ويقترب منهم مليونير في فمه سيجار ويسألهم:

- ماذا تريدون؟
- أن نربح السباق!
- أتريدون أن تربحوا الكأس كلّكم؟

فيجيبونه معًا:

- نعم بكلّ تأكيد!

- حسنًا، انتظروا بضع دقائق، سأقدّم لكم مفاجأة.

ويذهب الرجل إلى بائع الكؤوس، ويشتري دزّينةً منها، ويوزّعها على الأولاد ويقول لهم:

- افرحوا! هوذا كأس لكلّ واحد. كأسٌ أجمل من الّتي حضّروها لكم. هل أنتم مسرورون؟...

وينظر الأولاد بعضهم إلى بعض دهشين، ثمّ يصرخ أحدهم ساخرًا:

- احتفظ بكؤوسكَ لنفسكَ، فهي لا تهمّني. أنت لا تعرف أنّنا لا نريد كأسًا، وإنّما هذه الكأس. هذه الّتي هنا أمامكَ!

- ولكن، بمَ تتميّز كأسكم؟ لقد أحضرتُ لكم ما هو أجمل منها بكثير!

- ربّما كانت كأسكَ أغلى، لكنّها عديمة القيمة بالنسبة إلينا. فما يهمّنا هو **كأس نربحها**.

والأمر مشابه بالنسبة إلى السماء. فهي ليست سعادة مقدَّمة، سعادة تُنال، سعادة بماء الورد. إنّها سعادة مكتسبة، مستحقّة، مقتحَمة بضربات قبضة اليد. إنّها ثمار جهدٍ وتجاوزٍ وانتصار. السماء هي المجد.

ما نقوله هنا، يجيب على اعتراضٍ نسمعه غالبًا. بما أنّ الله عالمٌ بكلّ شيء، ويعرف مسبقًا

مصير كلّ خليقة من خلائقه، لمَ لم يكتفِ بخلق كائناتٍ مصيرها السماء فقط، ويبعد الآخرين؟ الجواب هو: حينئذٍ تكون حرّيّتنا وهمٌ صرف. لأنّنا سنكون جميعنا مدعوّين إلى السماء مسبقًا ومُختارين لها ومبرمجين عليها ومنقادين إليها.

فكما أنّ الحجر يسقط إلى الأرض بحكم ثقله، كذلك نسقط في السماء بحسب القدريّة نفسها. وكما أنّ إبرة البوصلة تلتفت تلقائيًّا نحو الشمال، كذلك نتوجّه نحو الله بدون خطأ. وكما أنّ زهر عبّاد الشمس يتوجّه آليًّا نحو الشمس، كذلك نتوجّه نحو الله بحكم ضرورةٍ حتميّة. وسنكون حينها محدَّدين مسبقًا، **وموجّهين مسبقًا نحو السماء**.

فأين تكون حينذاك حرّيّتنا وكرامتنا البشريّة واستحقاقنا؟ إنّ الله يحترمنا احترامًا زائدًا. فلا يحضِّر لنا سماءً كهذه.

السماء هي المحبّة! ومَن يقول محبّة يقول حرّيّة. نحن لا نحب لأنّ المحبّة إجباريّة، نحن نحبّ لأنّنا نريد هذا حتمًا. فإمّا أن يكون الحبّ حرًّا أو لا يكون. ولا يُجبَر أيّ أحدٍ على أن يحب. فالحبّ هو أكثر الأفعال حرّيّةً. فهو لا يؤمَر. فإذا كانت السماء محبّة، لا يمكنها أن تكون إلّا حرّة واختياريّة وإراديّة وتطوّعيّة.

لكلمة محبّة في اللغة اللاتينيّة معنى مزدوج: المحبّة والاختيار. إنّه لأمرٌ مهم أن تشير الكلمة نفسها إلى هذين المفهومَين. فكلّ محبّةٍ هي اختيار. ولا يمكننا أن نحب من دون اختيار أن نحب. وترتبط دعوة الإنسان في الحبّ ارتباطًا وثيقًا بحرّيّته.

وعكس السماء هو اللا حُب. رفض الحب. فالجحيم هو رفضٌ أبديٌّ لأن نحبّ.

«إذا كانت السماء محبّة وشراكة أبديّة،
فالجحيم لامحبّة وعزلة أبديّة».

فمَن انغلق دومًا عن المحبّة **طوال حياته**، وعاش لأجل نفسه فقط، ودار كلّ وجوده في فَلَكِ الأنا، وصنع درعًا يحميه من الآخرين، ويمكّنه من عدم الخروج إطلاقًا من قلعة أنانيّته المغلقة، هذا الإنسان يخلق جحيمه بنفسه. وفي ساعة موته، سيتابع عيشه في مساحة الأنا الضيّقة، وسيظلّ محبوسًا إلى الأبد في السجن الّذي بناه بنفسه. عزلة رهيبة لكائنٍ اختار الانغلاق على ذاته. **فالجحيم ليس إلّا الاستحالة الجذريّة للخروج من هذه الحلقة.**

يقول سارتر: «الجحيم هو الآخرون». وأنا أقول: «الجحيم هو أنا. إنّه التوقّع المستقبليّ الرهيب في أن أظلّ إلى الأبد مسوّرًا في داخلي».

إنّ أرهب زنزانةٍ وأكثرها ظلمةً وخوفًا هي الأنا. وما من سجنٍ أرهب منه. وأعمق دعوة لنا، وأكثر الغرائز حيويّةً فينا، وأشدّ ميولنا الجذريّة، هي أن نتدفّق في المحبّة ونعيش في الشراكة. والجحيم هو الرفض الاختياريّ لهذه الدعوة.

فمَن اختار على الدوام نفسَه، وجعلها هدف حياته وغايتها، واعتبرها مركز الجاذبيّة الوحيد لوجوده، سيسقط حين يموت في هاوية الأنا الّتي حفرها بنفسه. القضبان الّتي سيجد نفسَه وراءها، والسجن الّذي سيرى أنّه مسجونٌ فيه، هي من صنع يديه. **فالجحيم ليس إلّا هذا الانفراد الأبديّ مع الذات.**

إنّ هذا يذكّرني بكتاب المحلّل النفسيّ الألمانيّ - الأمريكيّ الشهير برونو بيتّلهايم Bruno Bettelheim: **الحصن الفارغ**. يدرس فيه الكاتب وضع الأطفال التوحّديّين autistes العاجزين عن الانفتاح على الآخرين، وعن الاتّصال بالمجتمع. إنّهم محبوسون في قلاعهم الداخليّة، ويعيشون في عزلةٍ مأساويّة. والجحيم هو نوعٌ من الانطوائيّة الروحيّة. حالة كائنٍ منغلق يعيش في اكتفاءٍ ذاتيّ تام.

العذاب الأبديّ هو حالة تناقضٍ أساسيّ بين غريزةٍ عميقة تدفعنا إلى أن نحب ورفض جذريّ يجعلنا ننغلق على ذواتنا. ويولّد هذا التناقض في الكائن توتّرًا لا يُطاق.

هناك نصٌّ لألكسي هنريون Alexis Hanrion يبيّن في رأيي ما أحاول شرحه:

> «إنّ جحيم المحكوم عليهم بالعذاب ليس إلّا هذا التوق الملِحّ إليكَ يا الله، الّذي طبعتَه فيهم، فأرادوا تحطيمه بالخطيئة. ويظلّ هذا التوق في كلّ النفوس العاجزة عن تلبيته وعاجزة عن تهدئته. فتكون جائعةً إلى اللانهائيّ وإلى العدم بجوعٍ لن يُشبَعَ أبدًا، لا باللانهاية ولا بالعدَم».

أرى أنّ هذا الأمر يثير الذعر! فهذه الكائنات خُلِقَت للمحبّة، ومُهِرَت بها، ولازالت تشعر في أعماقها بدعوةٍ إلى المحبّة لا يمكن قهرها. وسيستمرّ جوعهم إلى المحبّة، ولن يستطيعوا إشباعه، لأنّه من بنية كيانهم. إنّه جوهر الخليقة الروحيّة، وهو ما يجعلها كذلك. لن يستطيعوا إشباعه من دون أن يلغوا أنفسهم، وها هم عاجزون عن تلبية هذا الجوع، لأنّهم اختاروا طوعًا ألّا يلبّوها.

حين يرفض المحكوم عليهم بالعذاب هذا النداء الداخليّ إلى المحبّة، يجعلون أنفسهم في

تعارضٍ جذريّ مع كيانهم العميق. ففيهم شيء من «غياب لله لا يُغتفَر، في علاقة مع الله لا تُغتفَر» (پول ألتوس Paul Althus). ويعبِّر عن هذه العلاقة مع الله في ظمأ المعذَّبين الّذي لا يُروى، والوارد في مثل لعازر والغني (لوقا ١٦/١٩-٣١).

رجلٍ غنيّ يلبس الأرجوان والحرير، غائص في ملذّات الولائم، يتجاهل فقيرًا اسمه لعازر، قابعًا عند عتبة داره وجسمه مغطّى بالقروح.

ومات الاثنان. فحملت الملائكة لعازر إلى أحضان ابراهيم، أي إلى الفردوس. أمّا الغنيّ، فقد سقط في وادي الآلام. فبدأ يصرخ: «ارحمني يا أبتِ ابراهيم، وأرسل لعازر ليبلّ اصبعه بالماء ويبرّد لساني». فيجيبه ابراهيم: «مستحيل. فهناك هوّة تفصل بيننا ولا يمكن عبورها».

لماذا لا يمكن عبور هذه الهوّة؟ لأنّه بمقدور الإنسان أن ينغلق على ذاته بطريقةٍ كاملة، وأن يشيد حاجزًا مصمتًا بينه وبين الآخرين، وأن يقفل من الداخل بوّابة نفسه بطريقة عازلة تمامًا. فلا يستطيع شيء ولا أحد أن يلجها. وحتّى الله نفسه، لا يملك مفتاح البوّابة. **فكلّ إنسان يملك وحده مفتاح قلبه، ولا يستطيع الله أن يدخل إليه**

إلّا إذا أراد الإنسان أن يفتح له.

«ها أنذا واقفٌ على الباب أقرعه. فإن سمع أحدٌ صوتي وفتح الباب، دخلتُ إليه وتعشّيتُ معه وتعشّى معي» (رؤيا ٣/ ٢٠).

فالله لا يفرض نفسه على الإنسان، ولا يستطيع خلع الباب وتحطيم الأقفال. إنّه يقف هناك خارجًا، ساكنًا في البرد والليل، ينتظر أن يتفضّل الإنسان ويفتح له. ويستطيع الإنسان أن يقبل أو يرفض. فهو حر. هذا هو معنى كلمة «إذا» الرهيبة، الّتي تتكرّر باستمرارٍ في الكتاب المقدّس، والّتي تعبّر عن سلطة الإنسان الفظيعة في أن يقول لا، ويغلق قلبه ويصمّ أذنيه.

لكنّ الله لا يرفع صوته، ولا يلحّ في قرع الباب، ولا يصيح أو يصرخ. فهذا ليس أسلوبه. «مختاري... لا يصيح ولا يرفع صوته، ولا يُسمِعُ صوتَه في الشوارع» (أشعيا ٤٢/ ١-٢؛ متّى ١٢/ ١٩). ولا يُظهِرُ الله نفسه في العاصفة ولا في النار ولا في الزلزال، بل في النسيم اللطيف (١ ملوك ١٩/ ١١-١٢).

إنّه إذًا هناك، عند الباب، «متسوّل محبّة»، «فقيرٌ مخزيّ»، عاجزٌ تمامًا عن إجبار حرّيّةٍ ترفض نفسها... آهٍ كم هو مختلف عن الإله الّذي نتخيّله!



«ها أنذا واقف على الباب أقرعه. فإن سمع أحد صوتي وفتح الباب، دخلت إليه وتعشّيت معه وتعشّى معي».

أنا أملك وحدي مفتاح الأنا، والله نفسه لا يملك النسخة الثانية، وهو لا يستطيع الدخول إلى بيتي ولا اقتحامه بدون إذني. إنّه يحترمني احترامًا بالغًا، وهذه بالضبط هي المأساة.

بهذه الطريقة، علينا فهم الهوّة الّتي لا يمكن عبورها، والّتي يتكلّم الإنجيل عليها.

ربّما اعتقدنا الأمر التالي: بما أنّ السماء هي شراكة القدّيسين، فالجحيم هو شراكة الشياطين. لننتبه هنا إلى خطإنا. فما يشكّل الجحيم هو بالضبط غياب الشراكة. **فالجحيم تجمّع للعزلات** المتوازية الواحدة إلى جانب الأخريات. الجحيم مصنوع من أفرادٍ متجاورين. كلّ واحد وحيد بشكل مأساويّ، منغلق في قوقعته إلى الأبد.

ويستعمل الإنجيل كلمة جهنّم للإشارة إلى الجحيم. وهي الكلمة الشائعة في لغتنا العربيّة. أصل هذا التعبير عبريّ: «جيه هنّوم»، ومعناه الحرفيّ «وادي هنّوم». وهذا الوادي موجود حقًّا جنوب شرق القدس أسفل أسوار المدينة. وكان الناس يلقون فيه من أعلى الأسوار جميع نفايات البيوت وأوساخ المدينة.

وتُحفَظ النار في قاعه مشتعلةً ليل نهار لحرق النفايات والأوساخ الّتي تقيّأتها المدينة. وبإمكاننا أن نتصوّر بسهولة الجرذان والحيوانات

الأخرى تجول حول المكان، وكذلك الروائح الكرهة والعفونة المنطلقة من تحلّل الجيَف. وكان المسافرون من أورشليم باتّجاه الجنوب يمرّون بدون شكّ من جيه هنّوم، فيسدّون أنوفهم ويحثّون الخطى.

حين أراد المسيح أن يشير إلى الجحيم، لم يجد أفضل منه صورة تشبيهيّة. كانت جهنّم هي المكان الملعون الّذي تُلقى فيه كلّ ما لا تريده المدينة، كلّ ما لا تستطيع أن تدمجه في جنباتها.

علينا ألّا ننسى أنّ جيه هنّوم يقع خارج الأسوار. فالمدن في الماضي لم تكن مدنًا مفتوحة كما هي مدننا اليوم. كانت تُحاط بأسوارٍ فيها أبواب محروسة تُغلَق عند المساء. فلا أحد يخرج منها بعد حلول الليل. وكان قطّاع الطرق واللصوص وغيرهم من المجرمين يتجوّلون في الريف. والويل لمَن يغامر خارجًا. وعلى العكس، كان الّذين في الداخل يشعرون بالأمان، قريبون بعضهم من بعض في شعور من المشاركة العميقة.

كانت أسوار المدينة تزيد شعور الوحدة هذا قوّةً، وتجعل التجمّع الأخويّ للسكّان محسوسًا، وكأنّ المدينة بكاملها لا تشكّل إلّا أسرة واحدة

كبيرة. وكانت أسوار أورشليم، الّتي يرد ذكرها غالبًا في الكتاب المقدّس، تذكّر بذراعَي الأم الّتي تحضن أطفالها وتضمّهم إلى صدرها. وعلى العكس، كان الّذين في الخارج غرباء عن الجماعة، ممّن لا نصيب لهم. **فجهنّم إذًا هي هذا المكان الخارجيّ حيث جميع المنبوذين العاجزين عن عيش هذه الشراكة في المحبّة والإخاء.**

أذكر أمرًا من أيّام طفولتي، أثّر فيّ تأثيرًا عميقًا، ولازالت ذكراه حيّةً فيَّ. وهو يعرض بطريقةٍ مؤثّرة ما أحاول أن أعبّر عنه هنا. ففي أحد مخيّمات العطلة الّذي جمعنا، نحن شباب الإسكندريّة البواسل، في هدرا حيث كان إخوة المدارس المسيحيّة يملكون أرضًا، تقدّم فريق واقترح أن يمثّل مثلًا من أمثال الإنجيل، وهو مثل العامل البطّال الّذي حُكِمَ عليه بأن يُطرح في الظلمة البرّانيّة.

كانت هناك نار مشتعلة وسط حلقة المشاركين. وفي آخر المسرحيّة، أعلِنَ الحُكم على العبد البطّال: «كبّلوا يديه ورجليه وألقوه في الظلمة البرّانيّة». حينئذٍ، وبدل أن نرى الجند يمسكون المحكوم عليه ويكبّلوه، ومن دون أن يدفعه أصدقاؤه خارجًا أو يفعلوا أيّ شيء، نهض هذا

وأدار ظهره للنار، وتقدّم ببطءٍ وخرج من حلقة الجماعة، **وغاص وحده في ظلمة الليل.**

لقد اقشعرّت أبداننا من هذا المشهد. ما كان باستطاعة مجموعة البواسل الصغار هذه أن تتخيّل طريقة أفضل لإظهار الجحيم. فلا الله ولا الملائكة ولا الشياطين تلقي القبض على أحدٍ لترميه في النار، لأنّ الإنسان نفسه، وبكلّ رضاه، يجتاز حلقة الشراكة والمحبّة، ويبتعد عن النار الوحيدة الّتي يمكنها أن تدفئه، ليغوص وحيدًا في عتمة الليل.

وحدة، عزلة، ليل، ثلاث كلماتٍ يجيب بعضها عن بعضها الآخر وتخلق صدىً مأساويًّا. لا أحد يجبرنا! فمصيرنا اختيار نختاره بأنفسنا. إنّه مسيرة شخصيّة يختار فيها كلّ واحدٍ منّا الشراكة أو الابتعاد عنها.

افتحوا الإنجيل بحسب القدّيس يوحنّا تجدون فيه صورةً مؤثّرة. إنّها صورة يهوذا ليلة خميس الأسرار (يوحنّا ١٣/ ٢١-٣٠).

يهوذا هناك، جالس مع التلاميذ الآخرين حول يسوع في حميميّة الحلقة الّتي تجمعهم. جوّ الحرارة البشريّة الّذي يسود الحجرة يُثقِلُ عليه بثقَلٍ لا يُحتمَل وكأنّه يختنق في ملء المحبّة هذا. لقد قرّر أن يبيع سيّده وقلبه قاسٍ كالحجر. فما

يعيشه في الداخل يتعارض معارضةً شديدة مع هذا الجوّ البالغ في الحميميّة والأخوّة. وزادت اللقمة الّتي أعطاه المسيح إيّاها من قساوته. كيف يستطيع المشاركة في هذه الإفخارستيّا وهي سرّ الوحدة؟ فاغتاظ وانصدم ولم يعد قادرًا على التحمّل. حينئذٍ نهض فجأةً وخرج... وأغلق الباب خلفه. يقول القدّيس يوحنّا:

«وكان الليل قد حلّ...» (يوحنّا ١٣/ ٣٠).

ليست غاية هذه الملاحظة أن تعطينا معلومةً عن الطقس. فالقدّيس يوحنّا وزن كلّ كلمة من كلماته طوال أكثر من خمسين سنة. وكلمة ليل كما كلمة نور لها معنىً محدّد تمامًا. إنّها كلمة رهيبة، ولها مذاق العدم.

الليل هو رمز الشر. الليل هو الشر، الشرّ الّذي يغوص فيه هذا الرجل بحرّيّةٍ ووعيٍ. يذوب يهوذا في الليل كي يصبح والليلَ واحدًا. إنّه يغوص في الظلمات فتمتصّه وتبتلعه، أو بالحري، يختار أن يغوص فيها.

من عادتنا أن نصوّر الجحيم في هيئة مجمرةٍ أو فرنٍ. إنّها الصورة الّتي يستعملها المسيح نفسه، والمعنى واضح: النار تحرق الإنسان، تأكله وتدمّره من الداخل مثل الحقد وتبكيت الضمير. ويبدو أنّ النار هي الصورة المثاليّة لحالة العذاب

الّتي نتكلّم عليها. وهناك تشبيه أشدّ تأثيرًا من النار، وهو البرد.

ففي النار حرارة توحي بالحميميّة والحياة والحب. أمّا البرد، فهو الشتاء والموت والكتل الجليديّة الضخمة الّتي يقسّيها التجمّد، حيث تنعدم الحياة ولا يستطيع كائن أن يبقى.

الجحيم هو البرد، البرد الجليديّ لعالمٍ خالٍ من المحبّة، حيث يعيش كلّ واحدٍ وحده، يجهل جاره وينغلق في ذاته. عالم يتجاور فيه الأفراد من دون أن يلتقوا البتّة. عالم مُغْفَل، غير شخصيّ، كلّ اتّصالٍ فيه مُجمَّد، كلّ اتّصالٍ مستحيل. عالم نتجاهل فيه بعضنا بعضًا، ونحذر بعضنا بعضًا، ونراقب بعضنا بعضًا، ويحقد بعضنا على بعض، ويكره بعضنا بعضًا. إنّ هذا العالم، الّذي تفنى فيه القلوب المرتعدة بردًا، هو أفظع بكثير من الكتل الجليديّة في سيبيريا.

عبّر شابّ في السابعة عشرة من عمره عن هذا الموضوع بطريقةٍ أخّاذة: «حاولتُ في بعض الأحيان أن أتخيّل كيف يكون العالم الخالي تمامًا من المحبّة، عالم ليست فيه أيّة حركة مجّانيّة، عالم حُذِفَت من تعابيره كلمة عاطفة وأصبح كلّ شيء عقلانيًّا صرفًا. إنّه بالنسبة إليّ أشدّ الصور لما اتُّفِقَ على تسميته «الجحيم».»

حين سعى دانتِه أليغييري Dante Alighieri في كتابه **الملحمة الإلهيّة** إلى وصف الجحيم، لم يتكلّم على النار بل على البرد. فحين نلج تدريجيًّا في سلسلة حلقات متتابعة، نصل في آخر الأمر إلى قاع الهوّة. وما الّذي نجده في هذه الحلقة الأخيرة؟ لا نجد النار وإنّما الجليد والبرد.

يقول برنانوس Bernanos على لسان الشيطان في كتابه: **في شمس الشيطان**:

«أنا بارد».

الشيطان هو البرد، البرد مشخّصًا، الكائن العاجز أبدًا عن أن يحب. البرد هو جوهر الجحيم. بردٌ لا يُحتمَل. مكان ملعون تعيش فيه قلوب قاسية غير حسّاسة منغلقة بإحكام في وجه المحبّة، وعاجزة تمامًا عن المشاركة.

إنّ هذا يثير الرعشة.

يحقّ لنا أن نتساءل أمام مصيرٍ كهذا هل كان الأجدر بالله ألّا يخلق، ألّا يخلقنا، ألّا يخلق الحرّيّات. هل كان الأجدر به أن يُبقي في العدم هذا الكون المحكوم عليه أن ينتهي بهذه الطريقة المأساويّة حيث الثمن غالٍ بهذا الشكل؟

نستطيع أن نجيب عن هذا التساؤل بأنّه إذا كان الله محبّة، علينا أن نتوقّع أن تكون حالة

المحكوم عليهم بالعذاب أفضل من حالة العدم، من حالة عدم الوجود. لولا ذلك، لألغى الله، وبكلّ بساطة، المحكوم عليهم. فهل يستطيع إلغاءهم؟ هذا هو السؤال الجوهريّ.

فعمل الخلق بالنسبة إلى الله عمل محبّة. كلّ واحد منّا هو عمل محبّةٍ إلهيّة متجسّد وباقٍ. فالله يقول لنا من خلال عمل الخلق وحده: أحبّك. ولا يمكن لهذا الحبّ أن يكون إلّا أبديًّا لا رجوع عنه ولا ندامة.

«أحببتُكَ حبًّا أبديًّا» (إرميا ٣١/٣). «ها أنذا على كفيَّ نقشتُكِ...» (أشعيا ٤٩/١٦). «إذ قد صرتَ كريمًا في عينيَّ» (أشعيا ٤٣/٤).

هي ذي الرسالة الأساسيّة للكتاب المقدّس. إنّها العهد. فالإنسان في نظر الله فريد وثمين، بل ثمينٌ جدًّا، ومحبّته وفيّة إلى الأبد، ووفاءُه على الدوام. حين يحبّ الله، فهو يحبّ إلى الأبد.

سيحبّني الله دائمًا أبدًا، ولا يستطيع طرحي من محبّته، لأنّه لا يخون ذاته. ألا يقول لنا القدّيس بولس: «إذا كنّا غير أمناء، ظلّ هو أمينًا، لأنّه لا يمكن أن يُنكِرَ نفسه» (٢طيموثاوس ٢/١٣)؟

فهذه المحبّة إذًا تجعلني أوجَد **إلى الأبد**. فأنا معلّق دومًا بهذه المحبّة الّتي تدعوني إلى أن **أكون**. فكلّ وجود، حتّى وجود المحكوم عليه

بالعذاب، يتعلّق بمحبّة الله له، وهي محبّة لا رجوع عنها ولا ندم. كيف يكون الأمر غير ذلك؟ فنحن أبناءُه، أطفاله، لحمٌ من لحمه.

«لا يتيه الضالّون، لأنّكَ لازلتَ تعرف الطريق. لا يُحرَم الخطأة لأنّكَ تصلّي من أجلهم. إن انسحبتَ ذات يوم يتلاشون، وإذا نمتَ ليلةً يسقطون. فبفضلكَ إذًا، لا تُهمِلُ السماوات الأرض. فكلّ الّذين يجدّفون لا يعيشون إلّا منكَ» (جرترود فون لوفور Gertrude von Lefort).

فالجحيم إذًا ليس رفض الله للإنسان، وإنّما رفض الإنسان لله. الإنسان الّذي يرفض أن يحب وأن يُحَب، وأن يقرّ بالمحبّة الّتي هو محبوب بها. **فالإنسان سيكون إلى الأبد موضوع محبّة الله هذه، ولعلّه يجب البحث في هذا المجال عن آلام المحكوم عليه بالعذاب.** فما يؤلمه ويحرقه ليس نارًا ماديّة وإنّما محبّة الله الّتي يرفضها بعناد.

ليس في الحياة الأخرى ناران: نار المحبّة ونار الجحيم. لا! هناك فقط نار واحدة. إنّها جمر المحبّة الإلهيّة. إن استُقبِلَت، أصبحت بهجة المختارين. وإن رُفِضَت، كانت ألم الملعونين. النار نفسها، مقبولة أو مرفوضة، تبهج بعضهم وتعذّب الآخرين. ويعبّر هنري دو

لوباك Henri de Lubac عن هذا الأمر بطريقةٍ رائعة:

«إنّها حركة المسيح نفسها - الفخر الهادئ الجليل بالجراح الخمسة - الّتي تخلّص هؤلاء وتدين أولئكَ. فالمخلّص لا يتحوّل إلى قاضٍ وكأنّه ملّ من دوره الأوّل. فحبّه الوحيد، حبّه الّذي لا يتغيّر، هو الّذي يعلن الحكم المزدوج فينعكس في القلوب... في جوهره الثابت، تكون النار الإلهيّة نفسها ألمًا عند هذا وتنقيةً عند ذاك وطوبى عند ثالث».

تذكّروا مثَلَ الابن الضال (لوقا ١٥). ففي عمق عزلته، بعد أن بدّد ميراث أبيه، لم يعانِ الابن الجوع وحسب - لأنّ هذا ألم جسديّ فقط - بل ما عذّبه عذابًا أعمق هو أنّه خان محبّة أبيه. لقد مزّقته هذه المحبّة من الداخل، وهو الّذي تجاهلها واحتقرها ورفضها. واكتشف فجأةً ألم الأب والجرح الّذي سبّبه له. فأدّت هذه المحبّة المجروحة إلى عودته.

فكّروا في بطرس ويهوذا: بطرس المسكين ويهوذا البائس. كلاهما خانا معلّمهما، وكلاهما أنكراه، وكلاهما ارتكبا أعظم الخطايا. ونظر المسيح إليهما، فأجهش بطرس في البكاء من هذه النظرة، بينما قسا قلب يهوذا. يقول لنا الإنجيل: «وبعد أن تناول اللقمة، دخل الشيطان

إلى قلبه» (يوحنّا ١٣/ ٢٧).

كيف نتج عن نظرة المحبّة نفسها أثران مختلفان تمامًا؟

إنّنا نحن، الّذين نفصل بين العدالة والرحمة، ونظنّ أحيانًا أنّ المسيح الوديع المتواضع القلب يتحوّل يومًا إلى قاضٍ رهيبٍ قاسٍ، كما تصوّره لنا لوحة كنيسة السكستين.

لا! ليس هناك مسيحان وإنّما مسيح واحد. إنّه يسوع، المخلّص، كما هو معنى اسمه. يسوع هو مخلِّص. إنّه ليس إلّا مخلّصًا. لقد أتى ليخلّصنا لا ليحكم علينا. وقد قال ذلك صراحةً في الإنجيل: «ما جئتُ لأدين العالم بل لأخلّص العالم» (يوحنّا ١٢/ ٤٧). ويظلّ المسيح إلى الأبد مخلّصًا: «فابن الإنسان أتى ليخلّص ما قد هلك» (متّى ١٨/ ١١). فإذا نلنا خلاصه وقبلناه، أصبحنا في السماء. وإذا رفضناه ونبذناه، صرنا في الجحيم. والعقاب هو رفضٌ لخلاصٍ يُعطى مجّانًا.

> «وإنّما الدينونة هي أنّ النور جاء إلى العالم، ففضّل الناس الظلام على النور، لأنّ أعمالهم كانت سيئة» (يوحنّا ٣/ ١٩).

المسيح لا يدين أحدًا وإنّما الإنسان هو الّذي يدين نفسه. فحين يرفض الإنسان الحياة، يحكم

بالموت على نفسه. إنّه سلطان الحرّيّة المأساويّ المريع.

الجحيم وحده يكشف لنا ما هي الحرّيّة ومَن هو الإنسان.

الجحيم وحده يكشف لنا ما هي محبّة الله اللامتناهية.

نحن نحلم بحياةٍ هانئة، بنهايةٍ سعيدة مضمونة، مثل بعض الأفلام المصريّة أو الأمريكيّة...

ولكن، ما قيمة حياة الإنسان بدون إمكانيّة الرفض المأساويّة هذه؟ وما الّذي ستعنيه الحرّيّة؟ إنّنا لن نكون إلّا عرائس في يديّ إلهٍ يتلاعب بنا على هواه. إنّنا لن نكون إلّا ممثّلين في مسرحيّةٍ كُتِبَت مسبقًا، وكلّ ما يُطلَبُ منّا فيها هو أن نحسن تلاوة دورنا.

إنّ الله يتعامل مع الإنسان بمنتهى الجدّيّة، فلا يحطّ من قدره ويجعله في مستوى ممثّل مسرحيّةٍ كتب له فيها دوره مسبقًا. نحن الّذين نكتب المسرحيّة، وما من شيءٍ مقرّرٍ مسبقًا. ربّما تكون النهاية سيئة. لكنّ المأساة أمر يلازم الحالة البشريّة. إنّهما والوجود جسد واحد. أمّا الحياة الهانئة فلا وجود لها. على كلّ حال، لا فائدة من حياةٍ كهذه.

أمّا البرهان على أنّ هناك حقًّا أناسٌ في

الجحيم، فلا أحد يعرف ذلك. بالنسبة إليّ، لا أستطيع أن أتخيّل إمكانيّة وجود أناسٍ شديدي القسوة والفساد والسوء، فيعتزلون في أنانيّتهم، حتّى إنّهم لا يتركون أيّة ثغرة، أيّ شرخٍ، أيّ خللٍ، تستطيع محبّة الله أن تتسلّل من خلالها وتغزوهم. أنا لا أستطيع أن أتصوّر أناسًا أشرارًا إلى هذا الحد، سيّئين إلى هذه الدرجة، قساة القلوب بهذه الشدّة، لم يعملوا طوال حياتهم أيّ عمل محبّة. ففي نظري، هذا أمرٌ لا يمكن تصوّره.

على كلّ حال، لا أظنّني التقيتُ طوال حياتي شخصًا واحدًا شرّيرًا بكلّيّته أو سيّئًا. لا شكّ أنّني سمعتُ عن قتلة وجناة وجلّادين. ولكن، مَن يستطيع إثبات أنّهم أكثر شرًّا منكم ومنّي؟ أو أنّهم أعظم إثمًا من أيّ واحدٍ منّا؟ أو أنّهم ليسوا ضحايا أكثر منهم مذنبين؟ ضحايا نقص المحبّة والتربية الفاشلة وظروف حياةٍ صعبة جدًّا دفعتهم إلى سلوكيّاتٍ كهذه. مَن يستطيع الإدانة؟ مَن يجرؤ على رميهم بحجر؟

لقد حذّرنا يسوع من هذا: «لا تدينوا» (متّى ٧: ١). الله وحده يدين. الله وحده يسبر ما في القلوب والكلى، ونحن نعلم أنّه سيفعل هذا بمحبّة لامتناهية ورأفة ورحمة. «ففي شأن ما

يستطيع أب أن يدينه...» كما يقول پيغي، نحن على نقيض إلهٍ كان، ويا للأسف، إله طفولتنا وتعليمنا الدينيّ وتربيتنا الدينيّة.

وعلى الرغم من كلّ ما قلناه، علينا أن نؤكّد أنّ **الجحيم يظلّ إمكانيّة مأساويّة**. ولا تكون حرّيّة الإنسان بدونه إلّا نفاقًا. فإمكانيّة الرفض هذه، إمكانيّة «اللا» هذه، تهب «النَعَم» الّتي نقولها قيمةً وتهبنا كرامةً.

إنّ لاهوتيًّا مثل آلان واتس **Alan Watts** يرفض تصوّر الجحيم على أنّه حالة نهائيّة لا رجوع عنها، ويميل إلى فكرةٍ قريبةٍ جدًّا ممّا نسمّيه المطهر. هوذا ما يقوله:

«نحن نكفر إذا تخيّلنا الجحيم مكان عذاباتٍ لا تنتهي ولا تخفّ وطأتها. لأنّه إذا كانت الحرّيّة الممنوحة للبشر تتمتّع في الحقيقة بالقدرة على الوصول إلى نتيجةٍ رهيبة كهذه، فهذا يعني أنّ هناك أمرًا شيطانيًّا في النظام الّذي خلقه الله وفي الله نفسه. إنّ تخيّلنا هذا يفيد بدون شكّ في المحافظة على حرّيّة الإنسان. لكنّه يجعل الله شيطانيًّا...

أمّا إذا كانت العذابات الأبديّة قابلة للتبدّل مثل العذابات الأرضيّة الزمنيّة، وتقود إلى ذلك المكان السرّيّ الّذي يصبح الألم فيه فرحًا، نستطيع حينها أن نقبل أن يتوافق الجحيم

مع محبّة الله».

الإنسان مخاطرة، والحرّيّة مخاطرة، وقد رأى الله في حكمته أنّها مخاطرة تستحقّ أن تُعاش. كان باستطاعته ألّا يخاطرها. كان باستطاعته ألّا يخلق الإنسان. كان باستطاعته أن يكتفي بخلق حيواناتٍ عاجزة عن الاختيار، عاجزة عن تحمّل المسؤوليّة، عاجزة عن المحبّة، عاجزة عن الجحيم. لكنّه رأى أنّه من الأفضل خلق كائناتٍ حرّة، من الأفضل المخاطرة. وهو لم يخاطر هذه المخاطرة **لأجل** الإنسان، بل **مع** الإنسان. وقد غامر بنفسه في المغامرة البشريّة بأقصى ما يمكننا أن نغامره، فربط نفسه بالإنسان، حتّى إنّ مغامرتنا أصبحت مغامرته.

وإذ خلق الله الحرّيّة، التزم بمأساتها. وإذ خلق الإنسان، التزم بمأساته. لقد أراد أن يشارك مشاركةً كاملة. ففي تجسّده، **شارك في الطبيعة البشريّة حتّى أقصى نتائجها، حتّى الخطيئة نفسها**، وهو البارّ، «قدّوس الله»، حمل خطيئة الإنسان حتّى إنّه جعل نفسه خطيئة، كما يقول القدّيس بولس:

> «ذاك الّذي لم يعرف الخطيئة، جعله الله خطيئة من أجلنا» (٢ قورنتس ٥/ ٢١).

وقد قال المعمدان قبلًا على ضفاف الأردنّ:

«هوذا الّذي يرفع خطيئة العالم» (يوحنّا ١/ ٢٩).
لقد أوكِلَت إليه خطيئة العالم فتحمّل مسؤوليّتها وكأنّه ارتكبها بنفسه، وكأنّه رفعها عن كاهلنا ليضعها على كاهله.

ويا للمفاجأة. فعلى الصليب، صُلِبَت هذه الخطيئة معه، أي دُمِّرَت وأُلغيَت وزالت. يقول لنا القدّيس بولس: «وأزال هذا الحاجز مسمّرًا إيّاه على الصليب» (قورنثوس ٢/ ١٤).

وهذا ما يجعلنا نتوقّع أن يُلغي الجحيم نفسه مع إلغاء الخطيئة، وأن ينتهي كلّ شيءٍ بمصالحةٍ كبيرة ورحمةٍ عظيمة. إنّها فكرة الأپوكاتاستاسيس Αποκαταστασις أو الإصلاح الشامل، وهو تعبير غالٍ على قلب أوريجينُس، واستعمله أيضًا غريغوريُس النيصي وغيره من آباء الكنيسة. وعلى الرغم من إدانة هذه العقيدة، فإنّها تبدو في أيّامنا أكثر انسجامًا مع ما يحقّ لنا أن ننتظره من إله المحبّة، وأكثر توافقًا مع فكرة الخلاص الشامل.

«إنّ الله يريد أن يخلّص جميع الناس ويبلغوا إلى معرفة الحق» (١طيموثاوس ٢/ ٣). هذا ما يؤكّده لنا القدّيس بولس. فبالنسبة إليه، ليس لهذا الخلاص حدود، وهو يُقدَّم للجميع مجّانًا. إنّه ليس خلاصًا افتراضيًّا، بل واقعيّ. ونصوص كثيرة تشير إلى الأمر نفسه، لكنّنا نشعر بأنّ

الكنيسة مالت شيئًا فشيئًا إلى تضييق هذا الخلاص وحصره ببعض الناس معتمدةً على جملتين ليسوع تشعرانا بالحرج:

> «لأنّ جماعة الناس مدعوّون، ولكنّ القليلين هم المختارون» (متّى ٢٢/ ١٤). «ما أضيق الباب وأحرج الطريق المؤدّي إلى الحياة. والّذين يهتدون إليه قليلون» (متّى ٧/ ١٤).

ومع ذلك، أعلن أحد اللاهوتيّين المعاصرين، وهو أورس فون بلتازار Urs von Balthasar أنّ «رجاء الخلاص هو لجميع الناس». وساند هذا الطرح أيضًا كلٌّ من كارل راهنر Karl Rahner وهنري دو لوباك، وهما من روّاد المجمع الفاتيكانيّ الثاني. لكنّ انتقادات لاهوتيّي ألمانيا التقليديّين جعلت أورس فون بلتازار يحدّد الأمر ويقول: «لم أقل يقين، بل رجاء خلاص لجميع البشر»... ويضيف أيضًا: «إنّ فكرة تحديد مجال الرجاء تخالف كلّ رؤية مسيحيّة».

ويقول لنا المتصوّف اليسوعيّ فيكتور بوسِل Victor Poucel، وهو يستفيض على الدوام في هذا الاتّجاه: «في جوهر الألوهة أمومة وأنوثة غريبة عن مضمار العدالة الصرف. فنظرة قلب الأم لا تتوقّف عند الإهانة الّتي تنالها، بل عند قطعة لحمها هذه، الّتي تريد أن تشفيها بدل أن

تعاقبها... ففي الله... هذا الجوهر الأنثويّ الطبيعيّ الّذي لا يكون بدونه إلهًا حقًّا. والخليقة مع جحيمٍ بدون ما يلي الجحيم، لا تكون صورةً للعالم... **في نور الصليب، فإنّ انتصار الله على الجحيم أمرٌ مؤكّد**... والآن، مع يسوع المسيح، لم يعد هناك جحيم».

وآخر يقول أيضًا: «الجحيم موجود لكنّه فارغ...»

قد يكون هذا الإصلاح الشامل مفاجأةً كبرى أعدّها الله لنا... ولكن صه! يجب عدم التكلّم على هذا كثيرًا.

على كلّ حال، لم يبرز الجحيم بروزًا كاملًا، ولم ينل حقّه الكامل من الجدّيّة، إلّا في موت المسيح. بمعنى أوضح، **لقد اختبر المسيح على الصليب الجحيم حقًّا**. لولا ذلك، كيف نفهم صرخته الأليمة الّتي أطلقها وهو في ذروة عزلته وألمه؟

«إلهي إلهي لماذا تركتني؟» (مرقس ١٥/ ٣٤).

أليست هذه صرخة المحكوم عليه بالعذاب وهو في قاع الجحيم؟ فالمسيح، وهو ابن الآب الأزليّ، الّذي لا يعيش إلّا من الآب، الّذي لا يقوم إلّا بالآب، الّذي لا يحيا إلّا بالآب، اختبر

حينها شعور الانقطاع، فأحسّ بأنّه متروك، منبوذ، ملعون من الله. فعاش حينها هلع الجحيم بالمؤازرة مع كلّ مَن احتجزوا أنفسهم فيه.

وإذ جعل نفسه خطيئة، أراد أن يتماهى مع جميع المحكوم عليهم بالعذاب من أبناء الأرض ليعيش معهم رفض الله. لقد اختبر النزاع حتّى الغوص في هوّة الترك الربّانيّ الّتي لا يُسبَرُ غورها، أي الابتعاد عن الله، وهي خبرة العذاب نفسه.

أنستطيع أن نقول هذا من دون أن نكفر، أم إنّه، على العكس، يعبّر بوجهٍ أفضل عن «هيام الله»، كما يقول پول إفدوكيموف Paul Evdokimov؟ إذا كان الحبّ تماهيًا بالمحبوب، ألا يجدر بالله، الّذي خاطر ومنح الحرّيّة للإنسان، أن يخاطر بها أيضًا مع الإنسان حتّى النهاية؟ أليس الصليب مغامرة عاشها الله حتّى آخر نتائجها، أي حتّى الرغبة في التماهي بالملعونين واختبار رفض الله معهم؟ إنّ هذا يبدو لنا غير معقول. ومع ذلك، فلا بدّ من أنّ الأمور تمّت على هذا النحو. فقد عاش إله المحبّة مأساة الجحيم هذه من خلال يسوع المسيح حتّى أعمق ما في كيانه.

منذ ذلك الحين، فإنّ يسوع المسيح هو في

قلب الجحيم.

إنّه لم ينزل فقط إلى الجحيم، أي إلى مثوى الأموات، كما يقول قانون إيمان الرسل، بل إنّ المسيح، وبطريقةٍ سرّيّة يصعب شرحها، **نزل في الجحيم**. ففي مأساة الجلجلة، لم يكن هناك جميع مآسي الأرض وحسب، بل مآسي الجحيم أيضًا. كان على المسيح أن يضمّ إليه كلّ شيءٍ ليخلّصه، «ما في السماء وما على الأرض وما في الجحيم» (فيليبي ٢/١٠). ويعبّر پول إفدوكيموف عن هذا السرّ بطريقةٍ رائعة في نصٍّ من كتابه **الوجه الداخلي**:

> «ولأنّ الله ليس هوّة وحسب، بل هوّة محبّةٍ وحرّيّة، يستطيع بنوعٍ ما أن يسمو على سموّه، ويخرج من جوهره الّذي «لا يُدرَك»، لينزل حتّى آخر حدود الانفصال والعبوديّة، وحتّى إلى غيابه نفسه، إلى الموت والجحيم، لكي يفتح طريق الحياة للجميع...
>
> المسيحيّ هو مَن يكتشف في عمق جحيمه وجه الله المدمَّر والقائم من بين الأموات، المشوَّه والمتجلّي، الّذي يستقبلنا ويحرّرنا...
>
> فمن شدّة قدرة الله، يستطيع أن يسمو على قدرته، ويخرج بطريقةٍ ما من ألوهته من دون أن يفقدها، كي ينزل حتّى إلى الجحيم، ويعيد فتح كلّ شيءٍ إلى النور.

حينئذٍ يتلاشى الغمّ والانفصال والجحيم والموت بمَن تستطيع أن تحجزه: «لقد استولى الجحيم على جسدٍ، فوجد أنّه أمام الله. استولى على الأرض فالتقى السماء... قام المسيح وسادت الحياة!».

منذ ذلك الحين، لم يمتلئ الموت وحده بالنور، بل الجحيم أيضًا: «الآن، كلّ شيء مملوء نورًا: السماء والأرض والجحيم...»

لن نفهم أبدًا سرّ الصليب. لن نفهم أبدًا سرّ المحبّة. لن نفهم أبدًا سرّ يسوع. فعمق هذا السرّ يفوق كلّ تصوّر وكلّ فكر وكلّ عقل. فنحن هنا أمام واقعٍ لا يُسبَرُ غوره.

قال يسوع لكاترينا السيانيّة:

«يا صغيرتي، يا طفلتي، أنا المحبّة. لكنّكِ لن تفهمي أبدًا ما تعنيه المحبّة. لن تعلمي أبدًا إلى أيّ مدى وصلت محبّتي، ولن تسبري أبدًا عمق الهوّة. إنّي لم أحبّكِ لأتسلّى».

الفصل السادس

الحرّيّة الإلهيّة والحرّيّة البشريّة

في الفصل الأخير هذا، سنعالج الحرّيّة من زاوية الثنائيّة المتعارضة: الحرّيّة الإلهيّة والحرّيّة البشريّة، وهما عبارتان متناقضتان ظاهريًّا.

هل يمكن للحرّيّة الإلهيّة والحرّيّة البشريّة أن توجدا في آنٍ واحد؟ يجيب سارتر بالنفي: «إذا كان الله حرًّا فلستُ حرًّا. وإذا كنتُ حرًّا، فهو ليس حرًّا».

هناك صراع ومعارضة بين الإله الحر والإنسان الحر. ومن جهةٍ أخرى، نجد الصراع نفسه، والمعارضة نفسها، على مستوى حرّيّتيّ الإنسان: فحرّيّتي هي نفيٌ لحرّيّة الآخرين. وحرّيّة الآخرين هي نفيٌ لحرّيّتي.

فالحرّيّة تشغل بطبيعتها كلّ المساحة. إنّها نبذٌ لجميع الحرّيّات الأخرى، سواء كانت إلهيّة أو بشريّة.

ويمكننا شرح هذا الأمر من خلال جدليّة هيغل المعروفة في السيّد والعبد، وسأرويها لكم بطريقة

مبسّطة بعض الشيء. تخيّلوا إنسانًا في بداية العالم يتجوّل في غابةٍ بحرّيّة، ولنسمّه آدم إذا شئتم.

آدم هنا إذًا حرٌّ وسعيد، وحيد في الطبيعة، يغنّي ويقفز ويرقص. وفجأةً، يجد أمامه إنسانًا آخر يغنّي هو أيضًا ويقفز ويرقص. كان كلٌّ منهما يظنّ أنّه سيّد المكان وحده. وها إنّ آخر ينافسه على الأرض. فيتسمّر في مكانه من الدهش والاستياء. حينئذٍ يقطّب حاجبيه، وكانا في ذلك العصر ثخينين، ويبدأ الجدال. فيسأل آدم:

- ما الّذي تفعله هنا؟

ويجيب الآخر:

- بل اطرح السؤال على نفسك.

ويشعر كلّ واحدٍ بأنّ حضور الآخر تحدٍّ وعدوان واستفزاز. بأيّ حقٍّ أتى هذا الدخيل إلى هنا؟ إنّ حضوره فقط إهانة لحرّيّتي. عليّ إذًا أن ألغيه.

ويهجم الأضخم منهما على الآخر، وفي يده حجر كبير ليحطّم رأسه. فيرتعد الآخر ويجثو على ركبتيه ويرجوه متوسّلًا:

- لا تقتلني أرجوك! دعني أعيش! سأكون لك عبدًا، وسأخدمكَ حتّى آخر نَفَسٍ في حياتي... أرجوك...

ويفكّر المنتصر: «في الواقع، من مصلحتي أن أتركه على قيد الحياة وأجعله عبدي. إنّ هذا سيعفيني من العمل والتعب».

منذ ذلك الحين، يصبح الواحد سيّدًا والآخر عبدًا. وبعد مدّةٍ من الزمن، بما أنّ العبد نمّى ذكاءه ومعرفته بفضل العمل، يتمرّد على سيّده. وإذ أصبح السيّد رخوًا ضعيفًا بسبب حياة المتع والخمول، يعجز عن المقاومة، فيرجو عبده ألّا يقتله، وأن يخدمه بالمقابل كالعبد. وبعد فترةٍ من الزمن، تنعكس الأدوار ثانيةً، وهكذا دواليك.

إنّ هذه الحركة التأرجحيّة الدائمة تشكّل بالنسبة إلى هيغل جدليّة التاريخ، حيث تنتقل السلطة بالتناوب من المسيطر إلى المسيطَر عليه، ومن القويّ إلى الضعيف.

لنطبّق هذه الجدليّة على المستوى الدينيّ. فبما أنّ الله أقوى، ما على الإنسان إلّا الخنوع والانسحاق أمامه.

وحين يصبح الإنسان بالغًا، يعي ذاته ويسعى إلى إثبات نفسه، وليس أمامه إلّا حلٌّ واحد: أن يقتل الله.

وهكذا، ثأرت الإنسانيّة لنفسها بعد قرونٍ من هيمنة السلطة الدينيّة. لقد ثارت لأنّها أُخضِعَت حتّى ذلك الحين للوصاية، وأُبقِيَت في حالة

القاصر. فردّ الفعل هذا ليس طبيعيًا وحسب، بل سليم وخلاصيّ. **فمع موت الله، نشاهد ولادة الإنسان**، الإنسان الحر، المنتصب، الّذي نضج واكتشف كرامته فنالها. والإلحاد الّذي ازدهر في أوروبا طوال القرون الثلاثة الأخيرة، يمثّل بالضبط السعي لنيل الحرّيّة.

إنّ هذه الظاهرة التاريخيّة مسجّلة في نفسيّة البشر، كما أظهر ذلك فرويد بجلاء في كتابه الشهير: **موسى والتوحيد**... ويعبِّر عن هذه الظاهرة في «قتل الأب». فالطفل وهو في الثالثة من عمره، في أثناء عقدة أوديب، يظهر هذا الدافع للمرّة الأولى. فالأب يبدو حينها للطفل منافسًا يجب إلغاؤه، أو على الأقلّ إزاحته. وبعد فترةٍ طويلة، تعود الدوافع اللاواعية نفسها إلى الظهور، حين يشعر المراهق بأنّ وجود أبيه عائقٌ لاستقلاليّته.

ويطبّق فرويد هذا المخطّط على علاقة الإنسان بالله.

فضابط الكلّ هذا، الّذي يدير العالم، «ويفعل كلّ شيءٍ بحسب مشيئته»، كما تقول الكتب المقدّسة (أفسس ١/١١)، هو «أبٌ ساديّ» يجب إلغاؤه هو أيضًا.

يتفهّم غالبيّة الناس مشيئة الله وكأنّها مصير

محتوم يهيمن على حياة الإنسان. وكان اسم هذا في الماضي «القدر». فأكون مبرمجًا، نوعًا ما، لأذهب إلى السماء أو إلى الجحيم. فقد وضع الله فيلم حياتي مسبقًا وبأدقّ تفاصيلها، بحيث لا يترتّب عليّ إلّا أن أمثّلَ دوري بأكبر قدرٍ من الوفاء. فالأمر قد تمّ، وكلّ شيءٍ «مكتوب»، كما نقول في بيئتنا العربيّة. ما الّذي أستطيع فعله غير الخضوع للأوامر الإلهيّة، والاستسلام لهذه المشيئة السياديّة الّتي تسود العالم، والتصرّف بحسب رغبات لاعب الشطرنج الماهر، الّذي ينقِّل الحجارة، الّتي هي نحن، بحسب مزاجه؟ . . .

إذا كان الله يعرف مسبقًا مسار حياتي، فأين هي حرّيّتي؟

الإجابة بسيطة. إذا كان الله يعرف مسبقًا مسار وجودي، فهذا لا يمنعني من أن أعيشها كما أشاء. **وإذا كان الله يتوقّع قراراتي، فهذا لا يعني أنّ هذه القرارات لم تعد قراراتي. فسابق العلم الإلهيّ يختلف عن القدر.**

مثلٌ صغير يوضّح ما أريد أن أقوله. أرادت أمّ أن تهدي ابنتها ثوبًا لمناسبة عيد ميلادها. فذهبت إلى محلٍّ كبير، واختارت من بين الثياب المعروضة ثوبًا بدا لها يناسب ذوق ابنتها تمامًا.

وعندما عزمت على شرائه، تنبّهت وقالت في نفسها: لا! سأتركها تختار الثوب بنفسها! وذهبت إلى البيت، وعادت إلى المحلّ مع ابنتها وقالت لها: «اختاري الثوب الّذي يعجبكِ». ونظرت الصغيرة إلى جميع الأثواب، وتوقّفت عند الّذي اختارته أمّها وصاحت: «أحبّ هذا الثوب. هذا ما أريده». فقالت الأم: «كنتُ أعلم أنّكِ ستختارين هذا الثوب».

فالله يعرفنا أكثر بكثير ممّا تعرفنا أمّهاتنا. إنّه يعرف ذوقنا وميولنا، ويتوقّع رغباتنا، ويسبر قلوبنا ويلج أفكارنا، كما يقول المزمور الرائع ١٣٩:

> «يا ربّ قد سبرتني فعرفتني، عرفتَ جلوسي وقيامي. فطِنتَ من بعيدٍ لأفكاري، قدّرتَ حركاتي وسكناتي، وألِفتَ جميعَ طرقي. قبل أن يكون الكلام على لساني، أنتَ يا ربّ عرفته كلّه...»

فالله الّذي خلقنا، والّذي تشمل محبّته كياننا كلّه، والّذي ننكشف أمامه بشفافيّة، يعرف ما يختبئ فينا وما في قلوبنا وما ستكون اختياراتنا، وأين ستتوجّه اختياراتنا.

فإذا كان يعرف مسبقًا قراراتنا، فهذا لا يعني أنّنا أقلّ حرّيّة. إذا كانت الأمّ تعرف أيّ ثوبٍ

ستختاره ابنتها، لا يعني أنّ هذه لم تختر بحرّيّةٍ كاملة.

إنّ سابق علم الله لا علاقة له بالقدر أو المصير المحتوم. فالله بمحبّته اللامتناهية، يحترم حرّيّتنا احترامًا لامتناهيًا، ويقف عن بُعد تاركًا الإنسان يتصرّف على هواه.

لكنّ السؤال المطروح عندئذٍ هو: إذا كان الإنسان حرًّا في اختياراته، فما هو مصير كلّيّة قدرة الله؟

علينا أن نجيب بأنّ الله رضي بحرّيّةٍ ألّا يكون كلّيّ القدرة، حين اختار أن يخلق الإنسان حرًّا، وأن يمنحه حرّيّة قول «لا». لقد قيّد الله نفسه نوعًا ما.

حين خلق الله تلقائيّة الاختيار هذه، الّتي تُدعى الحرّيّة، رضي بحرّيّةٍ ألّا يكون حرًّا.

إنّ حرّيّة الله تتوقّف عند أبواب الإنسان. فإذا سدّ الإنسان الطريق أمامه، لا يستطيع الله إلّا أن يصمت ويخضع. فإمكانيّة «اللا» تضع حدًّا لا تتجاوزه قدرة الله. فبإمكان الإنسان أن يجعل قدرة الله تخفق في عملها.

وفي الآن نفسه، وهذا ما يبدو غريبًا، فإنّ قدرة الله تكون أقوى وألمع بكثير، إذا عملت في عناصر مطيعة لها طاعةً تامّة ومستسلمة. وسأشرح

ذلك: تخيّلوا ميكانيكيًّا يجمّع قطع محرِّك. فالقطع الّتي يسعى إلى جعلها يتوافق بعضها مع بعض، تقبل بوداعةٍ أن يتمّ التحكّم بها، ولا تبدي أيّة معارضة. حاولوا أن تتخيّلوا القطع وقد بدأت تتطاير وترقص بحسب مزاجيّتها أمام الميكانيكيّ حين جلس للعمل. واحدة تذهب يسارًا وأخرى يمينًا، وواحدة تختبئ وراء الحائط، وأخرى تتسمّر في مكانها وترفض أن تتحرّك. حينئذٍ سيطير صواب الميكانيكيّ، وسيمتنع عن الاستمرار.

إنّ هذه القصّة هي قصّة إنسانيّتنا، حيث بإمكان كلّ قطعة رفض أن تُمسَك وأن تقولَب وأن تُدمَجَ في المحرِّك. فقد اختار الله العمل بقطعٍ تتطاير وترقص وتختبئ وتتسمّر. قطع قادرة على التفكير والإرادة والقرار وردّ الفعل والقبول والرفض وقول نعم وقول لا.

عليه أن يركّب المحرِّك بهذه القطع، وأن يُتِمَّ عمله ويبني ملكوته. فلماذا عقّد إذًا مهمّته وصنع عناصر متحرّكة؟

ففي كلّ مرّةٍ يسعى فيها إلى وضع عنصر في مكانه، قد يواجه معارضة اللا.

ما الّذي يفعله حينها؟ إنّه يصمت وينتظر وهو يتابع عروضه واقتراحاته وإيحاءاته. إنّه يستدعي

وينير من دون أن يرغم حرّيّتنا، ومن دون أن يغتصب إرادتنا. فالله ينهج منهج الإغراء كما يسعى المحبّ إلى نيل قلب محبوبته.

«لذلك ها أنذا أستغويها، وآتي بها إلى البرّيّة، وأخاطب قلبها...» (هوشع ٢/١٦).

المحبّة ليست بالإكراه. هي ذي رسالة الوحي، هوذا أسلوب الله. فالله ينتظر، الله يصبر، الله يضغط برفقٍ على الإنسان ليحاول إقناعه وإغواءه وجعله يثق بأنّ الاختيار الّذي يقترحه عليه هو الاختيار الأفضل. «أحقًّا لا تريد؟... يا للأسف! مع أنّ هذا لخيركَ...»

والإنسان يفكّر، يتردّد، يقبل أو يرفض. يقبل نصف قبول ويرفض نصف رفض. ومع كلّ تردّداتنا وكلّ هشاشتنا وكلّ رفضنا، يجتهد الله في أن يشيد عمله مختبئًا وراء مسرح العالم، مختبئًا في عمق قلب الإنسان.

إنّ الأمر سيكون بسيطًا لو لم يكن لديه إلّا بضع عشراتٍ من القطع للتجميع. ولكن لديه المليارات الّتي تستطيع كلّ واحدة منها، وبمزاجٍ خاص، الانسحاب والقول: «آسفة، لا أريد... انتظر للغد... ربّما ذات يوم... لا أدري... سنرى...» هكذا يجب على الله أن يصنع التاريخ ويؤسّس الملكوت.

إنّ الله يبدو رائعًا في هذا الأمر. فيه هو إله. فعظمة ذكائه تكمن في العمل مع إنسانيّةٍ متحرّكة، مزاجيّة، متقلّبة، ثائرة، كسولة. ما أعظم الصبر والإبداع اللازمان كي يعمل الله في ظروفٍ كهذه، وما أشدّ ألمه أمام الرفض والفشل والمقاومة الّتي نواجهه بها.

ومع ذلك، فالله يعمل مع هذه الإنسانيّة، ومعه يتقدّم الملكوت وينمو. لأنّ الملكوت يتقدّم وينمو ويُبنى مهما كانت أفكارنا عنه، ومهما كانت أقوالنا فيه. إنّه يتحقّق معاكسًا كلّ شيء وعلى الرغم من كلّ شيء. الله ينمّي إنسانيّتنا البائسة بصبرٍ لا متناهٍ ورقّةٍ وإبداعٍ شديدَين.

إنّ صبر الله، صبره الّذي لا يمكن تصوّره، يمهل الإنسان إمهالًا، ويتركه يجرّب جميع حظوظه. فالله هو الّذي ينتظر، الّذي ينتظرنا، الّذي يعرف كيف ينتظر.

حين تستولي علينا الدهشة أمام روائع عالم الطبيعة، ننسى الاندهاش أمام ما هو أروع بكثير، وهو يُبنى يومًا بعد يومٍ في سرّ القلوب، ألا وهو عالم الإنسان الّذي يخلقه الله في كلّ لحظة، ويعيد خلقه وإبداعه من خلال الإنسان ومعه وفي حوارٍ معه وليس بدونه. فما أن يضع خطّةً حتّى نخفقها ونقلبها. فيضع خطّة أخرى،

ونحن نلخبطها. ويفكّر الله مرّة ثالثة في استراتيجيّته، ويعيد توزيع الأدوار وتنظيم خطّة عمله على الدوام، وبدون كللٍ أو ملل.

إنّ الجهد الّذي بذله الله لخلق الكون ليس بشيءٍ مقارنةً مع الجهد الّذي يبذله لمسار التاريخ في خلقٍ مستمرّ يُضطرّ إليه بسبب نزواتنا ومزاجيّاتنا ورفضنا وجبننا.

نحن نعتقد أنّ الله هو الّذي يلعب بنا، ونلاحظ أنّنا نحن الّذين نلعب به، ونجعله على الدوام في مأزق.

الإنسان تابع لحرّيّته في السرّاء والضرّاء. فهو الّذي يصنع التاريخ، وهو المسؤول عنه. هو الإنسان، أي أنا، أنتم، نحن، كلّ واحدٍ منّا.

حين نستعيد ذكريات حياتنا أو ندرس التاريخ، نعتقد أنّ مسار الأمور قد حُدِّدَ مسبقًا، ولا بدّ له من أن يكون على هذا النحو. وكان بمقدور هذا كلّه أن يختلف تمامًا لو كانت اختياراتنا مختلفة. فحين نعلم أنّنا نحن الّذين نكتب التاريخ باختيارنا وقراراتنا، تنال حياتنا وزنًا وجدّيّةً استثنائيّتين.

فإبراهيم وموسى ورمسيس وأفلاطون وفرنسيس الأسّيزي ونابليون وهتلر وعبد الناصر والأم تريزا وغيرهم كثيرون، ممّن أثّروا في التاريخ - سلبًا

أو إيجابًا- كان بإمكانهم أن يقوموا بأدوارٍ أخرى، وأن يجعلوا إنسانيّتنا تتوجّه اتّجاهًا مختلفًا تمامًا. فما من شيءٍ محدّدٍ مسبقًا. وبإمكاننا تصوّر ماضٍ أفضل أو أسوأ ممّا عشناه، لكنّ هذا الماضي هو من عمل بشرٍ واقعيّين، وقد جعلوه باختياراتهم يتوجّه التوجّه الذي نعرفه.

لقد سرت فينا عادة قراءة التاريخ مثل كتابٍ دُوِّنَ مسبقًا، مثل قدرٍ، مصيرٍ محتوم، أمرٍ مطلق. ويدفعنا هذا المَيل إلى الاستسلام للظروف والانقياد وراء الأحداث والعيش كمتفرّجين على الأخبار. حين يقول يسوع لنا: «ملكوت الله يؤخَذ بالجهاد، والمجاهدون يختطفونه» (متّى ١١/ ١٢)، فإنّه يريد أن يحذّرنا من هذه القدريّة المشلّة الّتي هي قدريّة كثيرٍ من الناس.

«إنّ الكسل يفضّل أن يقول: القدر. فيكفي حينئذٍ الانتظار ملتحمين بعضنا ببعضٍ كحيواناتٍ خائفة، أو أن نرقص بين البرق أملًا في أن تنسانا العاصفة...

نحن نرفض أن نكون أحرارًا ونقول: مكتوب، أسرتي، خطاياي، كما يسير العالم... لأنّ لدينا قلوبًا ضعيفة تستسلم» (جان سوليفان Jean Sulivan).

يسمّي الإسلام هذا قضاءً وقدرًا، أي مصيرًا، قرارًا إلهيًّا، مشيئة الله. وبإمكان مَن ليس لديهم

إيمان أن يعيشوا في هذه الحالة أيضًا كأسلوبٍ آخر من المصير الذي كتبه بشرٌ وحدّدوه. ففي كلا الحالين، نجد موقف الجمود نفسه، الذي يجمّد ويشلّ ويمنع من الإمساك بزمام الأمور والمخاطرة بها.

إنّ ما يهب وجودنا جدّيّته وتركيزه هو معرفة أنّ اليوم وغدًا سيكونان بحسب ما نفعله بهما، ومعرفة أنّنا نمسك مصير العالم بأيدينا، ومعرفة أنّ مصير الإنسانيّة يمرّ من قلوبنا وحرّيّاتنا، ومعرفة أنّ كلّ اختيارٍ من اختياراتنا هو منعطفٌ لتاريخ الكون.

إنّ هذا الوعي يحرّكنا ويحرّضنا ويدفعنا إلى العمل والالتزام والإبداع والجرأة، ويسوع يتكلّم على هذه الشجاعة: إنّها قتال وهجوميّة موجّهة إلى بناء الملكوت.

لم تكن الحرب العالميّة الثانية ولا معسكرات التعذيب ولا قنبلة هيروشيما أمرًا محتومًا. فكلّ هذا كان ثمرة قراراتٍ حرّة حوّلت التاريخ في هذا الاتّجاه. ما من شيءٍ مكتوب. فالإنسان هو الّذي يقرِّر.

في بعض الأحيان، نفكِّر وكأنّ الأمور قد قُرِّرَت، ونظنّ أنّها يجب أن تتمّ على هذا النحو، لأنّنا نعرف كيف جرت. من الممكن أن يكون

هناك عدّة مريماتٍ رفضنَ جميعهنّ طلب الربّ قبل مريم الناصريّة. فالأمومة الإلهيّة لم تكن بالنسبة إليها قدرًا وإنّما اختيار. لولا ذلك، ما قيمة النَعَم الّتي قالتها؟ **ونظنّ أيضًا، أنّ حياة يسوع كانت مقرّرة مسبقًا، وأنّه كان لا بدّ له من أن يُبلى بالخيانة والتعذيب والصلب**. لا! فرومانو غوارديني Romano Guardini يحذّرنا من تأويلٍ قدريٍّ كهذا. لم يكن مصير يسوع محتّمًا مسبقًا، وكان باستطاعة يسوع أن يعيش حتّى الثمانين من عمره. فإذا كان قد مات وهو في الثالثة والثلاثين، فلأنّ الناس قرّروا ذلك.

«حين ألقى يسوع العظة على الجبل، وقال عباراتٍ أخرى لها القوّة نفسها والبساطة نفسها، قدّم للعالم إمكانيّة كبيرة. كان الجميع يشتاقون إلى قدوم «ملكوت الله» (متّى ٣/ ٢). لذلك قال إنّه قريب. ولم تكن هذه الكلمة تعبيرًا رمزيًّا فقط... فكلمة قريب تعني قريب. ومن ناحية الله، كان من الممكن أن تصبح نبوءات أشعيا، التي أعلنت عالمًا جديدًا، أمرًا واقعيًّا... وكان بإمكان الملكوت أن يؤسَّسَ لو آمن الناس بالرسالة... لكنّ هذا لم يحدث. فقد رفض الشعب يسوع وقتلوه. منذ ذلك الحين، تمّ الخلاص، لا بانفجار إيمانٍ ومحبّةٍ وثورةٍ

خلّاقة للروح، بل بموت يسوع وذبيحته المكفِّرَة.

... فإذا عدنا إلى الأنبياء، وجدنا لديهم وجهين للمسيح. وهذا أمر فريد. فهو الملك الجالس على عرش داوُد... وهو أيضًا خادم الله... مُهانٌ ومُعذَّبٌ وتدوسه الأقدام... الصورتان هنا... ويجب ألّا يُحذَفَ أيٌّ منهما... فالفكرة الموجودة في الرؤيا النبويّة... تريد الاحتمالَين، سواء قال الشعب نعم أو لا، وسواء سار المخلّص نحو قلوب البشر المستقبلة له أو نحو الموت».

لم يكن على الإنجيل أن ينتهي بالطريقة المأساويّة الّتي نعرفها، ولم يكن على يسوع أن يموت تلك الميتة. لكنّ البشر أظهروا عنادًا وقسوةً تجاه رسالته، فحدث المأزق والانغلاق والرفض، وباتت الجلجلة والصليب المخرج الوحيد حينها.

عندما قال يسوع: «يجب»، فإنّه لم يُرِد أن يتكلّم على مصيرٍ محدّدٍ مسبقًا. بل أراد أن يقول، وبكلّ بساطةٍ، إنّ الشرّ الفاعل في الإنسان يجعلنا نتوقّع هذه المعارضة العنيدة، وهذا الهيجان الأعمى. كان يجب، لأنّه يجب أن نتوقّع جواب الإنسان بالرفض والنبذ أمام حقيقة يسوع ونقائه.

لقد توقّع النبيّ وشعر بما سيحدث. فهو يتمتّع بعطيّةٍ خاصّة، رادار خاص، حساسيّة خاصّة، تمكّنه من العلم السابق، من معرفة الأحداث قبل حدوثها. وحين تكلّم، فإنّه لا يكون قد تنبّأ عنها، بل تنبّأ عنها لأنّه اكتشف علامات حدوثها.

الإنسان هو الذي يصنع التاريخ. الإنسان هو الّذي يوجّه الأحداث. الإنسان هو الّذي يرجّح كفّة الميزان باتّجاهٍ أو بآخر. والله يقف وراء الستار خفيًّا، يميل إلى التفرّج أكثر منه إلى المشاركة، ويتأمّل المأساة، ويقول في نفسه: «آهٍ لو يفهمون!»

في بعض الأحيان، نشعر بالعار أمام الشر، ونجعل الله مسؤولًا عنه: «لمَ يسمح الله بهذا؟ لمَ يسمح لأمورٍ كهذه بأن تتم؟ لمَ لا يتدخّل وينهي الشقاء؟»

وننسى ببساطة أنّ الله هو أوّل مَن يتألّم لما يصيبنا. ننسى أنّه عاجز عن منعه وإيقافه بدون رضانا.

فالإنسان هو مؤسّس الحروب والظلم والعنف، وهو صانعها. والشرّ ينبع من قلب الإنسان ويفيض على العالم.

لقد تعوّدنا أن نجعل الله مسؤولًا عن البؤس

والفقر والمجاعة. لكنّنا نعلم كلّنا أنّ مواردنا كافية لتلبية احتياجات جميع الناس. كلّنا نعلم أنّ في كوكبنا فيضٌ نبذّره بطريقةٍ مخزية، بينما يموت آلاف الأشخاص يوميًّا من الجوع. فالبؤس ليس أمرًا محتومًا، والمجاعة ليست قدرًا، بل نحن الّذين نرفض المشاركة، وأنظمتنا هي المصمَّمة بطريقةٍ رديئة، وقلب الإنسان هو الّذي لا يريد أن يتغيّر.

المسؤول الحقيقيّ ليس الله وإنّما أنانيّتنا ونهمنا ورغبتنا في الامتلاك. والله يتألّم من هذا كلّه. إنّه يتألّم لأنّه محبّة. يتألّم لأنّه تماهى بأصغر البشر. يتألّم لأنّه يشعر بالعجز.

نتساءل في بعض الأحيان لماذا لم يخلق الله عالمًا بدون ألم، عالمًا بدون بؤس، عالمًا كلّ ما فيه كامل؟ بما أنّ الله كامل، كان عليه أن يخلق أفضل العوالم. هذا ما يقوله لايبنيتز **Leibniz**. أمّا سيمون ڤايل **Simone Weil** فهي برأيٍ مخالفٍ تمامًا:

> لقد خلق الله أسوأ عالمٍ ممكنٍ...

لاشكّ في أنّها تبالغ. لكنّ الأمر الثابت هو أنّ الله لم يخلق أفضل العوالم. فقد خلق عالمًا غير كامل، وأراد عمدًا عدم الكمال هذا، ليتيح للإنسان فرصة ممارسة ذكائه وإبداعه واختراعه.

فالصفة غير المنتهية للعالم هي تحدٍّ لنا يجب التغلّب عليه، ومساحة مقدّمة لحرّيّتنا.

ولأجل هذا الأمر، أعطانا الله جميع المواد اللازمة، ولكن في حالتها الخام. فعلينا أن نستغلّها ونستثمرها ونستعملها لبناء أرض الغد. علينا نحن أن نصنع أفضل العوالم، أن نخلقه، أن نخترعه.

ما قيمة عالمٍ مسبق الصنع؟ ما قيمة عالمٍ يُقدَّمُ لنا على طبق، وما علينا إلّا أن نستقبله؟ إنّ عالمًا كهذا سيكون أسوأ العوالم وأشقاها وأبشعها: إنّه ملل فظيع.

إلّا أنّ الله، حين سلّمنا هذا العالم، لم ينسحب من خليقته. لقد أقام فيها، حاضرًا، منتبهًا، ساهرًا، يحثّنا ويلهمنا ويدفعنا ويساندنا. إنّه يعمل فينا ومن خلالنا بخفيةٍ شديدة وهو مختبئ في أعماقنا، فلا يبيّن نفسه ولا يظهر. يمّحي لنبرز ونتثبّت ونكتشف سرّ فرح الخلق. فروعته هي في اختفائه.

لدينا انطباع أنّ لنا الدور الأوّل. لكنّ الله هو الّذي يبادر ويعرض ويحثّ ويقترح، وفي آخر الأمر يعمل حين ندعه يعمل. مَن الأوّل؟ مَن الثاني؟ من الصعب أن نحدِّد. **فمهمّتنا هي مهمّته، ومهمّته هي مهمّتنا، وكلّ واحدٍ يتصرّف**

بحسب مستواه.

الله هنا، مخفيّ في قلب كلّ اختيار من اختياراتنا، في قلب حرّيّتنا، متفرّج وفاعل في آنٍ واحد. قال أحدهم: «الله هو حين يستعمل الإنسان أسمى ما في الإنسانيّة». بمعنى آخر، أسمى معاني الإنسانيّة فينا هو أسماها ألوهة. وأسمى ما فينا هو أيضًا أسمى ما فيه.

تقول ماري أنطوانيت دو جوزِر Marie-Antoinette de Geuzer، وهي إحدى متصوّفات القرن الماضي المشهورات: «في أقصى الأنا يكون هو».

إنّ علامة الحرّيّة الحقيقيّة هي حين يلتقي الإنسانيّ فينا والإلهيّ، فلا يشكّلان إلّا واحدًا. حين تمتزج مشيئة الله بمشيئتنا، وحين نريد ما نريده، فنريده كما يريده الله تمامًا. حين يكون هناك تصادف تام بين مشيئتنا والمشيئة الإلهيّة. أليس في هذا معنىً لعبارة نقولها في صلاة الأبانا: «لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض»؟

فما دام هناك مسافة بين المشيئتين، لا نكون أحرارًا حقًّا، بل نعيش في سطحيّةٍ، ولا نتوافق مع كياننا العميق، فنستعبد أنفسنا، ونكون غرباء عن ذواتنا.

يميّز موريس بلونديل Maurice Blondel تمييزًا منيرًا بين **المشيئة المريدة** - وهي مشيئتنا السطحيّة الغريزيّة المزاجيّة - والمشيئة المرادة - وهي مشيئتنا العميقة الأساسيّة - وهي ليست سوى مشيئة الله فينا. فبإلغاء المسافة بين المشيئتين، وبنجاحنا في جعلهما يتوافقان، نحقّق وحدة كياننا.

حينئذٍ نكتشف أنّنا أحرار حقًّا. أحرار بحرّيّة من دون حدود، حرّيّة واسعة كالعالم والكون.
حينئذٍ تعمل قدرة الله في ضعفنا وتغيّر العالم.

فبمقدار ما نكون معبرًا صرفًا وشفافيّةً صِرفًا لقدرة الله، نصبح قادرين على صنع المعجزات وعمل العجائب. فتولد منّا حينها «السّماء الجديدة والأرض الجديدة»، الّتي يتكلّم القدّيس يوحنّا عليها في سفر الرؤيا.